أثر القحط و المجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط

محمد ياسر الهلالي

كلية الآداب، البيضاء، بن امسيك

يتعلق موضوع البحث الذي أتناوله بالدرس والتحليل الآثار التي خلفها القحط والمجاعات والأوبئة[1] على الأنشطة الاقتصادية الثلاثة :

---

[1] سأذكر طيلة هذا البحث القحط والمجاعات أولا ثم الأوبئة ثانيا وذلك لأن الأوبئة غالبا ما تلي سنوات الجدب أو تتزامن معها أحيانا، انظر :

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة، محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1406 هـ/ 1985 م، ص. 345.

أبو عبد الله لسان الدين بن الخطيب السلماني، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، الجزء الثالث، تقديم وتحقيق، السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1401 هـ/ 1981 م، ص.61.

أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1401 هـ/ 1981 م، ص. 376..

علي بن عبد الله محمد بن هيدور التادلي، رسالة في ماهية المرض الوبائي، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم : 9605، ص. 2.

أبو عبد الله بن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، الجزء الثاني، تحقيق وتعليق، علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1977-1978 م، ص. 271.

مارمول كاربخال، إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، الجزء الأول، 1404 هـ/ 1984 م، ص. 126.

أبو العباس أحمد بن أحمد بن القاضي المكناسي، لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، ضمن ألف سنة من الوفيات، تحقيق، محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم (2) : الرباط، 1396 هـ/ 1976 م، ص. 228.

Bernard. ROSENBERGER, Hamid. TRIKI, « Famines et épidémies au Maroc au XVI e et XVII e siècle », 1er partie, Hespéris Tamuda, Vol. XIV, Fasc - unique, 1973, pp. 115-120.

Fernand. BRAUDEL, Civilisation matérielle et capitalisme, (XV e - XVIII e siècle), Tome 1, Librairie Armand Colin, 1967, p. 58.

الفلاحة، والحرف، والتجارة، خلال مغرب أواخر العصر الوسيط، أي ما بين النصف الثاني من القرن السابع هـ/XIII م إلى النصف الأول من القرن العاشر هـ/XVI م. ودون الدخول في تفاصيل دواعي اختيار هذه الحقبة التاريخية وأهميتها، يمكن الاكتفاء بالقول إنها نهاية مرحلة كبرى في تاريخ المغرب تميزت بتحولات سياسية واجتماعية وديموغرافية واقتصادية وثقافية عميقة، وقع خلالها انحسار ظل المغرب بعد انتشار، وفيها صار الغرب المسيحي يتحرش بالمغرب، فانقض النصارى على شواطئه، وابتلعوا بعض جهاته. إنها باختصار حقبة تمثل بالنسبة للمغرب الأقصى بداية منحدر، تركت أثرها الواضح على تطورات لاحقة شهدها هذا البلد كمسار طبيعي لحركية التاريخ. فما هي طبيعة المصادر التي تساعد على تناول هذا الموضوع ؟

إنها مصادر ذات طبيعة وقيمة مختلفتين من كتب أخبار وجغرافيا ورحلات ونوازل وتراجم ومناقب...الخ. وهي إجمالا تختزن معلومات أوفر عن توالي القحط والمجاعات والأوبئة، مقارنة مع تلك السابقة عن الحقبة المدروسة. فبالنسبة لكتب الأخبار، فإن اهتمامها بذكر الجوائح المشار إليها، جاء في سياق اهتمام عام بما هو استثنائي وغريب، وبما يعكر السير الطبيعي للأحداث. فقد شكل، على سبيل المثال، الحديث عن الأوبئة، وما يتبعها من موتان، وتراجع عدد السكان في أخريات عمر الدول هاجسا لدى الإخباريين[2]. وجاء الطاعون الأسود ليطبع بالخصوص كتابات مؤرخي الحقبة المرينية، ولو بشكل عفوي، وهو ماجعلهم يعيشون فترة ترقب وخوف، وأقنعهم ذلك بأن للقرن الثامن هـ/XIV م خصوصية تاريخية متميزة[3]. غير أن هذا الطاعون، كسابقيه ولاحقيه، لم يشكل دافعا

---

[2] Abdallah LAROUI, L'Histoire du Maghreb, un essai de synthèse Maspero, Paris, 1982, pp. 199-200.

[3] Maya. SHATZMILLER, L'Historiographie Mérinide, Ibn Khaldun et ses contemporains, Leiden, E.J. Brill, 1982, pp. 1-2.

تجدر الإشارة إلى أن القرن الثامن هـ/ XIV م شكل موضوعا لعدة دراسات تاريخية أظهرته كقرن حافل بالكوارث (Un siècle calamiteux) كتزايد برودة المناخ وتلاحق فترات القحط وانتشار الأوبئة كالطاعون مثلا، مما جعل الباحثين الأوربيين والمشارقة يجعلون من هذا القرن منعطفا حاسما في التاريخ الإنساني.

Barbara. TUCHMAN, A Distant Mirror, The calamitous-fourteenth centry, New-York, 1988.

Michael. DOLS, The Black Death in the middle East, Princeton, 1977.

نقلا عن

M. SHATZMILLER, L'Historiographie Mérinide, op.cit, p. 1.

لديهم للحديث عن آثاره المدمرة ومنها نتائجه الاقتصادية، بما في ذلك ابن خلدون الذي شكل لديه هذا الطاعون حافزا نفسيا وباعثا على كتابة مؤلفه "تاريخ العبر". فقد مروا عليه وعلى غيره بشكل سريع وغير دقيق، "وكان يلزم وقوع شدة طاحنة، ووجود إخباري نبيه لكي نحصل على بعض التفاصيل (...) لذلك فإن البياضات الموجودة في خارطة المجاعات والأوبئة هي في الأساس بياضات في مصادرنا"[4]. وقد عزا محمد القبلي[5] صمت الإخباريين عن ذكر الطاعون الأسود إلى أنهم كانوا يعتبرونه رحمة بالنسبة للمسلمين، اعتمادا على ما ورد في الأحاديث النبوية، وأن ضحاياه منهم في منزلة الشهداء[6]، لذلك لم يكن ليحتل حيزا كبيرا في كتاباتهم، مع ما أشاعه من دمار.

كانت المجاعات والأوبئة تثير اهتمام الجغرافيين والرحالة وتجعل أصحاب هذه المؤلفات يصفون بعض المخلفات السلبية لهذه الكوارث على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية[7].

وباستثناء هذين الصنفين من المصادر اللذين أفادا الموضوع المدروس، فإن باقي المظان كانت إفادتها محدودة ؛ فكتب النوازل والحوالات الحبسية، اكتفت في الغالب، بالإشارة إلى بعض الظواهر الاجتماعية المرافقة للمجاعات والأوبئة[8]. أما كتب التراجم والمناقب،

---

[4] محمد الأمين البزاز، « أوبئة ومجاعات المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر »، الجزء الأول، بحث لنيل شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1989-1990 م، (مرقون)، ص، 7-8.

[5] Mohamed. KABLY, Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen âge, (14-15 siècle), Islam d'hier et d'aujourd'hui, Maisonneuve et Larose, Paris, 1986, p. 143.

[6] راجع، مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1404 هـ/ 1984 م، ص. 55.

[7] مثلا وصف أبو مروان اليحساني الجوع الذي خيم على المغرب مع بداية النصف الثاني من القرن السابع هـ وصفا مفجعا. أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي، تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان، حققه بمقدمة وتعليقات، فرناندو دي لاجرانخا، منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مدريد، 1974 م، 65، 113. ووصف ابن الخطيب بعض الآثار المدمرة لقحط وطاعون سنة 763 هـ. نفاضة الجراب، ج 3، ص. 61.

[8] أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، الرباط، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401 هـ/ 1981 م، ج 4، ص. 97، 125، 126، 185، 290. ج 7، ص. 83،84. أحمد بن الحسن السوسي، نوازل أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن الرجراجي السكتاني، الخزانة العامة، الرباط، رقم : 84 ق، ص. 77، 98، 124. مجهول، حوالة أحباس تازة، الجزء السادس، الخزانة العامة، الرباط، رقم : 134 ميكرو فيلم.

فركزت على ذكر سنة المجاعة أو الوباء، في ثنايا الحديث عن وفاة عالم أو صالح، أو عند طلب الاستسقاء من الولي أيام القحط، أو ضمن الكلام عن مساعدة الأولياء للجوعى أيام المجاعات، والكرامات المرافقة لذلك، كإحلال البركة في الطعام القليل ليكفي طيلة أيام المجاعة. وأحيانا أهملت كتب المناقب حتى ذكر سنة المجاعة في مقابل اهتمامها بكرامات الولي خلالها، وأدواره الاجتماعية، وفي مقدمتها توزيع الطعام[9]، دون ذكر الانعكاسات العامة، ومنها الأثر على الأنشطة الاقتصادية. وهذا شيء طبيعي إذا علمنا أن الحديث عن المجاعات والأوبئة، لم يكن من دواعي التأليف في التراجم وأدب المناقب[10]، ولا حتى في الأجناس السالفة الذكر.

غير أن الأوبئة شكلت حافزا لميلاد ما يمكن تسميته بأدب الأوبئة الأندلسية في غالبيته، على الأقل فيما توصلنا به لحد الآن، وكان للطاعون الأسود في منتصف القرن الثامن هـ/ منتصف القرن XIV م نصيب وافر في هذا الاتجاه[11]. على أن رجحان الكفة الأندلسية في هذا الأدب، يطرح

---

[9] راجع مثلا، أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي صالح بن ينصارن الماجري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، المطبعة المصرية، الطبعة الأولى، 1352 هـ/ 1933 م، ص. 313. عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق، سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982 م، ص. 60-62. أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم الملياني المديوني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326 هـ/ 1908 م، ص. 278. محمد بن عبد الله الريفي، جواهر السماط في ذكر مناقب الشريف الرفاعي سيدنا ومولانا الخياط، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : 1185، و، 40 أ - 40 ب.

[10] يقول أحمد التوفيق في مقدمة تحقيق كتاب، التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي العباس السبتي، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 1984 م، ص. 14 « وما نظن أن مؤلف كتاب الاستقصا قد أراد أن يربط بين هذا التأليف وبين ظرفية السنة التي وقع فيها عندما قال : "وفي سنة سبعة عشر وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب، وفيها ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المراكشي الذي عرف بابن الزيات كتابه المسمى بالتشوف إلى رجال التصوف " ».

[11] من أدب الأوبئة نذكر، محمد بن أبي العاص الأندلسي، الرسالة في تحقيق الوباء. ذكره عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، الطبعة الاقتصادية، دون تاريخ، ص. 64. محمد بن يوسف بن عمران المزدغي (فقيه وخطيب جامع القرويين، ت. 14 ربيع الأول 655 هـ)، تأليف بعنوان " إذا نزل الوباء بأرض قوم فلا تخرجوا منه فرارا ". ذكرها علي بن أبي زرع الفاسي (؟)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 م، ص. 82. وأبو العباس أحمد بن أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 م، ج 1، ص. 222. وأحمد بابا التنبكتي السوداني، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، 1398 من وفاة الرسول/ 1989 م، ص. 380. لسان الدين بن الخطيب، مقنعة السائل عن المرض الهائل، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، رقم : 101 م ك ل. (كتبها بمناسبة الطاعون الأسود). أبو

أكثر من تساؤل عن أسباب قلة اهتمام الكتابات المغربية بحدث هام، كالطاعون الأسود. فهل يعزى ذلك لضعف تأثيره على المغرب مقارنة مع الأندلس ؟

يرى بعض الباحثين أن السبب أعمق من ذلك، حين اعتبروا الطاعون ظاهرة إيجابية، لكونها عقابا من الله للكفار، الذين توفوا بفعل المنكرات التي ارتكبوها[12]، ومناسبة للمسلمين والمؤمنين للشهادة والرحمة. ومن تم لم يعر أصحاب هذه الكتابات أي اهتمام للطاعون. فما يمكن تأكيده هو أن هذا الأدب لم يفد موضوع هذا البحث، إذ انحصرت اهتماماته بين ما هو شرعي وما هو طبي – وقائي[13]. حيث تم التركيز على ذكر أسباب الأوبئة وأعراضها، وكيفية التصرف زمن الوباء، والأطعمة الجيدة اللازم أكلها، وتلك التي يجب تركها، والأشربة والأدوية

الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (733-852 هـ/ 1372-1499 م)، بدل الماعون في فوائد الطاعون، مخطوط الخزانة الوطنية بتونس، رقم : 00569، ورقة، 73-77. نقلا عن :
Mohamed. TALBI, « Effondrement démographique au Maghreb du XI^e au XV^e siècle », Cahier de Tunisie, XXV, 1977, p. 57.
أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأندلسي (ت. بعد 770 هـ/ 1369 م)، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، ميكروفيلم، الخزانة العامة، الرباط، رقم : 2112. حسن بن علي (ت. 750 هـ) (والد ابن قنفذ القسنطيني)، المسنون في أحكام الطاعون. ألفه بفعل فشو الطاعون الأسود. ذكره أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني، شرف الطالب في أسنى المطالب، ضمن ألف سنة من الوفيات، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم (2)، الرباط، 1396 هـ/ 1976 م، ص. 81. وفي النسخة المخطوطة بالخزانة العامة في الرباط، رقم : 1428 د ضمن مجموع، و، 97 ب-98 أ. علي بن عبد الله محمد بن هيدور التادلي (ت. بمجاعة في فاس عام 816 هـ)، رسالة في ماهية المرض الوبائي. ألفه بعد الطاعون الأسود حيث ترد سنوات مثل 764 هـ. أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الحطاب الأنصاري (ت. 953 هـ)، عمدة الدواوين في أحكام الطواعين. ذكره أبو العباس أحمد بن أحمد بن القاضي المكناسي، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، دون تاريخ، ج 2، ص. 189. ابن منظور، وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد، مخطوط في ملكية محمد المنوني. كما شكلت الأوبئة حافزا لكتابة عقد تحبيس أواسط رجب عام 876 هـ. حوالة أحباس تازة، ج 6، ص. 233.
ويرى محمد الأمين البزاز أن « هذه المؤلفات ساعدت على تحديد التفكير السائد في مواجهة مشكل الوباء وردود فعل ذلك الفكر تجاه حل هذا المشكل »؛ « أوبئة »، ج 1، ص. 8.

12 J. SUBLET, La peste prise-aux rets de la jurisprudence, Studia Islamica, XXXII, pp. 144-145.
نقلا عن : مصطفى نشاط، « التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول 668-759 هـ »، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1)، عين الشق، الدار البيضاء، السنة الجامعية، 1988-1989 م، (مرقون)، ص. 386.

13 Ali OUMLIL, L'histoire et son discours, Essai sur la Méthodologie d'Ibn Khaldoun, SMER, Publications de la faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat, 2^ème édition, 1982, p. 93.

والأبخرة المستعملة للعلاج، والأدعية المساعدة على ذلك، والعطور المستحبة[14]. ولم تكن هذه الأمور في متناول الفقراء، الذين شكلوا غالبية اليد العاملة المحركة للأنشطة الاقتصادية، مما يفسر كثرة الموتان فيهم[15]. وهي الإشارة الوحيدة غير المباشرة التي يمكن استقاؤها من هذا الأدب.

وإذا كانت الأوبئة والطواعين قد شكلت حافزا لظهور أدب الأوبئة، فإن اللافت للانتباه حقا، هو أن المجاعات رغم شدتها، لم تكن كذلك، مما يطرح أكثر من علامة استفهام، منها على سبيل المثال لا الحصر : هل فاقت الآثار التدميرية للأوبئة بكثير نظيرتها التي خلفتها المجاعات ؟

إن هذه الأصناف المصدرية جميعها، وخاصة كتب الأخبار والرحلات والجغرافيا، مكنت من إنجاز جدول عن حالات القحط والمجاعات والأوبئة التي عرفها المغرب الأقصى، ما بين النصف الثاني من القرن السابع هـ/XIII م إلى النصف الأول من القرن العاشر هـ/XVI م. غير أن الغرض من هذا البحث ليس هو تفصيل الحديث عن هذه الجوائح، والكشف عن أسبابها، لكون ذلك سبق تناوله من لدن بعض الباحثين من أمثال : حميد التريكي و"برنار روزنبرجي" (Bernard ROSENBERGER)، ثم محمد الأمين البزاز، وإنما هو معالجة آثار القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية. إلا أن هذا الغرض يصطدم بجملة من الصعوبات، وفي مقدمتها، أن القحط والمجاعات والأوبئة لم تكن من دواعي تأليف جل أجناس الكتابة التي تم الإطلاع عليها، لذلك فإنها لم تفرد سوى إشارات ونتف متفرقة عن آثار هذه الجوائح على الأنشطة الاقتصادية، وردت بشكل هامشي وغير مباشر، لا يسمح بالقيام بعملية تتبع كرونولوجي، من شأنها المساعدة على تشكيل سلسلة متصلة الحلقات، وتكوين صورة بانورامية حول الموضوع. فالمادة التاريخية المستخلصة منها يغلب عليها التقطع على مستوى المجالات، وعلى مستوى الأزمنة الشيء الذي يشكل عقبة كأداء، تحول دون إمكانية

---

14 ابن الخطيب، مقنعة، ص. 1-7. ابن هيدور، رسالة، ص. 1- 5 .

15 يقول ابن الخطيب عن الوباء : « وفي الضعفاء وأهل الشظف أفتك (...) وإن قيل كل شيء يكثر وقوعه في أهل الشظف قلنا لأمور منها إمكان المباشرة [للمصاب] من المرضى والجنائز والأثواب والأكلات ومنها ضيق المسكن والتراكم وسوء التدبير وعدم التحفظ وقلة التيقظ لفشو الجهل وعدم العلم بهذه الأمور »، مقنعة السائل، ص. 13-15. أما الفئات الغنية فإنها كانت تملك عادة مخزونات القوت ما تستطيع به مقاومة الشدة، وبإمكانها أن تشتريه في حالة استنفاذه لديها لتأمين استهلاكها العائلي. البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 8.

الرصد الجيد للنتائج التي تمخضت عنها، وبالتالي الخروج باستنتاجات تساير التساؤلات المطروحة. ولعل هذا ما يفسر مرور الباحثين على هذه النتائج بشكل سريع.

ثم إن المصادر لا تكشف في الغالب، عن التاريخ المضبوط لبداية المجاعة أو الوباء وتاريخ انتهائهما. وهي قلما تحدد بدقة المجالات الجغرافية التي انتشرت فيها وعانت منها. وبذلك نكاد لا نعرف حجم الدمار الذي نجم عنها. فهي إما تعمم، فتقول : بأن القحط أو المجاعة أو الوباء أصاب المغرب، أو تركز على المناطق الشمالية من البلاد عامة ومدينة فاس خاصة، على اعتبار أن أغلب المصادر المتوفرة، كتبت في هذه المدينة، من دون أن نعرف إن كان لهذه الجوائح، لا سيما ذات المصدر الطبيعي منها، امتدادات في المناطق الأخرى للمغرب، وخاصة نحو الجنوب.

وقد لاحظ أحد الباحثين[16] من جهته، أن المعلومات الواردة في المصادر حول سنوات الجفاف، وما يتبعها من مجاعات ارتبطت أكثر بفترات التطرف المناخي، أي أن المصادر لم تذكر إلا بعض الوقائع التي كان يشتد فيها الجفاف، وأن سكوتها عن أحوال المناخ لفترات طويلة، لا يعني بأن الوضع المناخي كان مستقرا، بقدر ما كان سبب ذلك تعرض المغرب لكوارث أخرى، لفتت انتباه المؤرخين أكثر من غيرها[17].

وحتى إذا ما تم التكيف مع كل هذه العقبات، فإن الباحث عن معالجة الآثار الاقتصادية للقحوط والمجاعات والأوبئة، يقف طويلا أمام عقبة الوضع الديموغرافي المرتبط بالموضوع. إذ كيف يمكن الحديث بمصداقية عن تاريخ المغرب الوسيط وأنشطته الاقتصادية دون معرفة تطوره الديموغرافي. فماذا يمكن القول عن هذا الجانب ؟

---

[16] عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان 8-9 هـ/ 14-15 م) »، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1989-1990 م، (مرقون)، ص. 371.

[17] إن سكوت المصادر عن الوقائع المناخية خلال الفترة الممتدة من 725 هـ/ 1325 م إلى 763 هـ/ 1361-1362 م، قد يكون بسبب تعرض المغرب لمصيبة الوباء الجارف، كما أن أوبئة القرن التاسع هـ/ XV م قد تكون سببا في عدم ذكر المصادر لبعض الوقائع المناخية حيث لم تذكر المصادر أي خبر عن المناخ بين سنة 816 هـ/ 1413-1414 م وسنة 911 هـ/ 1505-1506 م، بينما ذكرت خلال هذه الفترة مجموعة من الأوبئة التي أصابت المغرب وهي على التوالي 845، 846، 852، 856، 886، 897، 914 هـ، والراجح أن بعض هذه الأوبئة كانت من نتائج بعض المجاعات التي هي الأخرى كانت حصيلة القحط. نفسه، ن.ص. هـ، 9 مكرر.

إن تناول الوضع الديموغرافي في مغرب العصر الوسيط عموما، وفي علاقته بموضوع المجاعات والأوبئة، وآثارها على الأنشطة الاقتصادية خصوصا، يصطدم أساسا بمشكل الرقم في مصادر المرحلة المدروسة. فما هو متوفر من معلومات، يحمل في مجمله طابعا وصفيا- انطباعيا لا إحصائيا، يعبر من خلال عبارات عامة من قبيل : "هلكت أمم لا تحصى"[18]. أو "قتل عدد كثير"[19]. أو "أهلك العالم"[20]. أو "كان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس"[21]. أو "المجاعة العظمى التي خلا منها المغرب"[22]. أو "المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب [التي] هلك فيها خلق كثير [حتى] كان الناس يحملون من الموتى أربعة وثلاثة واثنين في نعش واحد"[23]. أو الطاعون الجارف "الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل"[24]. أو الجدب والطاعون الذي أدى إلى "فُشُوِّ الموتان"[25]. أو الوباء الذي "احتجز الكثير إلى القبور"[26]. أو الوباء الذي "قضى على جميعهم"[27]، حتى

[18] جاء ذلك في وصف ابن عذاري للمجاعة التي ضربت مراكش زمن الرشيد (630-640 هـ/ 1232-1243 م). البيان الموحدي، ص. 325-326.

[19] جاء ذلك في وصف وباء سنة 634 هـ. ابن عذاري، البيان الموحدي، ص. 325-326.

[20] جاء هذا في وصف أبي مروان للمجاعة التي صادفها حين زيارته للمغرب، القشتالي، تحفة المغترب، ص. 65.

[21] جاء ذلك في وصف وباء سنة 635 هـ، علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 م، ص. 351.

[22] جاء ذلك في وصف مجاعة التي استمرت في المغرب من سنة 619 هـ إلى 637 هـ. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 41. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 1، ص. 34.

[23] ذكر هذا في وصف مجاعة ووباء سنة 693 هـ أيضا. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 384، 409. أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي، تاريخ ابن خلدون المسمى، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء السابع، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1401 هـ/ 1981 م، ص. 290.

[24] هذا ما عبر عنه ابن خلدون واصفا الطاعون الأسود منتصف القرن الثامن هـ/ XIV م. مقدمة، ص. 42-43.

[25] جاء ذلك في وصف مجاعة وطاعون سنة 763 هـ. ابن الخطيب، نفاضة، ج 3، ص. 61.

[26] جاء ذلك في وصف وباء سنة 763 هـ. لسان الدين أبو عبد الله بن الخطيب السلماني، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله عنان، الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، 1395 هـ/ 1975 م، ص. 90.

[27] جاء ذلك في وصف وباء أصاب قلعة بني منصور قبل سنة 930 هـ. الريفي، جواهر السماط، و، 9 ب - 10 أ.

"خلا المدشر"[28]...الخ من العبارات التي تركت أثرها حتى على تقييمات بعض الباحثين للنتائج الديموغرافية لبعض الأوبئة[29]. واللافت للانتباه أنه حتى بالنسبة للطاعون الأسود الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها" على حد تعبير ابن خلدون[30]، لا نتوفر بشأنه ولو بمعطى إحصائي واحد. وكل ما هناك بعض أسماء العلماء والصلحاء الذين هلكوا من جرائه.

إن معلومات من هذا الصنف تظل غامضة، وجزئية، وغير مضبوطة في الغالب، تستدعي التعامل معها بحذر شديد، وبالتالي فإنها لا تمكن من إخضاع المجاعات والأوبئة إلى دراسة ديموغرافية وسوسيواقتصادية يمكن أن نعرف من خلالها عدد ضحاياها من المغاربة[31]. وإنه لمن الصعب جدا معرفة ما إذا تمكنت ساكنة المغرب

---

[28] جاء ذلك في وصف وباء أصاب أحد مداشر زرهون قبل سنة 930 هـ. نفسه، و، 48 أ.

[29] ذهب محمد الطالبي إلى حد القول بأن هذا الطاعون الأسود حصد نصف ساكنة البلاد تقريبا دون أي سند وثائقي - إحصائي.

M. TALBI, « Effondrement démographique », op.cit, p. 57.

وأشار مؤلفوا كتاب " تاريخ المغرب " إلى أن نسبة الوفيات في أوربا من جراء الطاعون الأسود تراوحت بين 8/1 و3/2 حسب المناطق. ورأوا إمكانية تطبيق هذه النسبة على المغرب الأقصى دون الخوف من الوقوع في المزالق.

Jean BRIGNON et autres, Histoire du Maroc, Librairie Nationale, Casablanca, 1967, p. 153.

لا يوافق " بيرابين" على هذه الأرقام، ويرى أنه من الصعب تقدير الخسائر الديموغرافية لأن الأرقام التي يسردها الأخباريون قليلا ما يمكن تصديقها. خاصة أن العديد من المصادر التي تعرضت للطاعون الأسود ظلت شهادتها مفككة، مطبوعة بالدعوات والابتهالات، وترويج الإشاعات الشعبية، حتى ليشعر المطلع عليها غالبا أن أصحابها كانوا يضغطون على الوصف، ويبحثون أكثر على التأثير الأدبي منه عن الحقيقة التاريخية. وهي ملاحظة تسري على الإخباريين الأوربيين الذي أرخوا للطاعون نفسه.

Jean-Noël. BIRABEN, « La Peste Noire en terre d'Islam », L'Histoire, n° 11, 1979, pp. 22, 36.

[30] ابن خلدون، مقدمة، ص. 42-43.

[31] إن مشكل الرقم في المصادر المغربية الوسيطية هو ما يفسر بالأساس غياب أية دراسة تاريخية - ديموغرافية شاملة عن المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، في حدود معرفتي على الأقل، ولا حتى محاولة لربط تطور الساكنة بالاقتصاد. وقد ظهرت في السنوات الأخيرة، بتوجيه من مجموعة الديموغرافية التاريخية في كلية الآداب بوجدة، بعض الدراسات المحدودة التي أخذت تجازف بالبحث في هذا الجانب. نذكر منها على سبيل المثال : محمد حجاج الطويل، « المسألة الديموغرافية : نحو منهجية ديموغرافية. محاولة إحصائية (العصر الوسيط نموذجا) »، مجلة كنانيش، الديموغرافيا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد الأول، صيف خريف، 1999 م، ص. 19-28؛ إبراهيم القادري بوتشيش، « أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديموغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة) »، مجلة كنانيش، العدد 1، ص. 41-

الأقصى من إعادة تكوينها بعد الآثار المدمرة لهذا الطاعون. لاسيما أن ما تبقى من القرن الثامن هـ/XIV م وطيلة القرن التاسع وبداية العاشر هـ/XV-XVI م عرف بدوره أوبئة قاتلة.

لا يصطدم الباحث فقط بالمشاكل التي يطرحها المنحى الوصفي-الانطباعي للمصادر المغربية الوسيطية في الموضوع، بل يتمنى لو جادت هذه المصادر حتى بمعلومات قليلة بالنسبة لكل المجاعات والأوبئة. فالحاصل أنه من بين 49 مجاعة عرفها المغرب، حسب ما تمكنت من رصده، بين سنتي 617 هـ/1220 م و960 هـ/1552 م لا نعرف تقديرات عدد الضحايا فيها باستثناء 10 منها، من خلال عبارات عامة تفصح عن قوتها التدميرية كما أسلف ذكرها، وأرقام وتقديرات غير مضبوطة بعضها من مصادر إيبيرية ذكرها التريكي و" روزانبرجي " (ROSENBERGER). ولم يختلف الحال كثيرا بالنسبة للأوبئة، فمن بين 41 وباء وطاعونا ضرب المغرب، على الأقل، ما بين سنتي 610 هـ/1213 م و964 هـ/1557 م لا نعلم عدد الضحايا إلا في 17 مرة وبالطريقة نفسها أيضا[32]. (انظر خانة عدد الضحايا في الجدول) ورغم ندرة الإشارات، وغموضها في الغالب، فالراجح أن عدد المغاربة ظل يتناقص باطراد منذ القرن السابع هـ/XIII م وطيلة القرنين الثامن والتاسع هـ/XIV-XV م. ويبدو أن سكان المغرب خلال هذه الحقبة التاريخية، كانوا يعيشون في دائرة مغلقة من الناحية الديموغرافية، أي في نظام ديموغرافي قديم، تميز بالركود، نتيجة تآكل نسبة المواليد بفعل ارتفاع نسبة الوفيات. فكلما تزايد عددهم في أوقات الهناء والرخاء، إلا وانقضت عليهم المجاعات، وفتكت بهم الأوبئة، بصفة تكاد تكون دورية[33]، فتقضي على عدد كبير منهم.

52.؛ مصطفى نشاط، « أثر جوانب من الديموغرافية التاريخية لليهود والنصارى بالمغرب في العصر المريني »، مجلة كنانيش، العدد 1، ص. 65-80.

32 راجع الجدول الذي تم تخصيصه لحالات الكوارث الطبيعية التي عرفها المغرب الأقصى ما بين النصف الثاني من القرن السابع هـ/ XIII م إلى النصف الأول من القرن العاشر هـ/ XVI م، والرسمين البيانيين المرافقين له. ونحن نورد الأرقام المشار إليها نبدي كل التحفظات التي تدعونا البداهة إلى الأخذ بها وإنما يعيبها أنها تبدو متفائلة لأنها تتجاهل العديد من المجاعات والأوبئة " المحلية" التي لم تكن تواكب دائما المجاعات والأوبئة العامة. ولعل تلك المجاعات المحلية كانت تستفحل في ظل بطئ وقلة وسائل النقل ووعورة المسالك.

33- لاحظ الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، أن الوباء كان يظهر في المغرب على رأس كل عشر سنوات أو خمسة عشر أو عشرين سنة. وصف إفريقيا، الجزء الأول ترجمة عن

إن مقدمات من هذا النوع، تنهل من معطيات وصفية-انطباعية وغير تامة، تجعلنا لا نجد حرجا في القول منذ الآن : إن دراسة آثار القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية ستكون بدورها كذلك، وبالتالي موسومة بعدم الدقة والعمومية التي ينفر منها المؤرخ، وبعيدة عن الطابع العلمي الذي يود أن يقترب منه. فكيف تمثلت هذه الآثار في بلد كان السكان فيه يعتبرون قوة العمل الأساسية التي تضطلع بالدور الرئيسي في عملية الإنتاج ؟

أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الفلاحة :

أسفر توالي القحط والمجاعات والأوبئة على المغرب الأقصى خلال الحقبة التاريخية المدروسة عن تفاقم وظهور العديد من المشاكل التي أدت في النهاية إلى زعزعة الأسس المادية للنشاط الفلاحي، وأعاقت تطور الزراعة والغراسة والرعي. ويأتي في مقدمة هذه العوائق قلة اليد العاملة الزراعية[34]، وما يتبعه من نقص في الأراضي المحروثة[35] بفعل

الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983 م، ص. 85. غير أن هذا لا يشكل إلا جزءا من القاعدة وليس القاعدة برمتها. فإذا كان ما ذهب إليه صحيحا فهذا يعني أن المصادر لم تشر إلى جميع الأوبئة. ذلك أن قراءة فاحصة للجدول الموضوع تبين أن الحد الأقصى الذي يفصل بين وباء وآخر هو 58 سنة (أي ما بين سنة 635 هـ ووباء 693 هـ) بينما الحد الأدنى سنة واحدة في حالات كثيرة. أما المجاعات فتفصل بينها 58 سنة أيضا كحد أقصى (أي ما بين مجاعة سنة 816 هـ ومجاعة 874 هـ) وسنة واحدة كحد أدنى في حالات متعددة. أما إذا تم الجمع بين المجاعات والأوبئة فيصبح الحد الأقصى 26 سنة والحد الأدنى سنة واحدة. (راجع الجدول والرسوم البيانية للتحقق من ذلك).

ويمكن تأكيد عدم شمولية قاعدة الوزان من خلال ما توصل إليه الباحثين حليمة فرحات وحميد التريكي اللذين أحصيا، اعتمادا على مصادر عديدة، ما يربو عن خمسين مجاعة وقحط ووباء ضربوا المغرب الأقصى ما بين 380 هـ/ 990م و 680 هـ/ 1282 م، مما أعطى معدل كارثة طبيعية كل ست سنوات. مع العلم أن السنوات التي عرفت هذه الكوارث قليلا ما كانت تتسم بالانقطاع.

Halima FERHAT et Hamid TRIKI, « Hagiographie et religion au Maroc médiéval », Hespéris Tamuda, Vol. XXIV, 1986, p. 42, Note : 72

[34] يرى الأستاذ محمد فتحة أن كثيرا من حالات النقص في اليد العاملة بالبوادي لا تعود لأسباب ديموغرافية وإنما تتعلق بظروف الإنتاج في البوادي وإيقاعاتها الموسمية، فالطلب على الأجراء كان يزداد حسب الفصول، فيزداد بموازاة معه التعاقد المسبق مع الأجراء وإن مع تأجيل العمل. « الأحكام والنوازل والمجتمع : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 12 م إلى 15 م »، بحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، 1995 م، (مرقون)، ص، 814. فهلا اعتبر هذا التعاقد المسبق كنتيجة للوضع الديموغرافي المنهار في البوادي من جراء القحط والمجاعات والأوبئة دون نفي ازدياد الطلب على اليد العاملة في فترات معينة ؟

[35] M. TALBI, « Effondrement démographique », op.cit, p. 57

موت "العديد"[36] منها متأثرا بهذه النوائب. فعلى سبيل المثال فقدت القبائل في دكالة وعبدة وسوس "الكثير" من سكانها (قدرهم التريكي وROSENBERGER بالثلث أو النصف على الأقل)، وماشيتها وطاقتها الإنتاجية إثر المجاعة الشديدة لسنة 927-928 هـ/1520-1521 م. وكنتيجة حتمية أصبحت هذه المناطق شبه فارغة من السكان لمدة طويلة[37]. كما جر الطاعون الذي رافق المجاعة المذكورة من ورائه "العديد" من الضحايا في سوس[38].

ولم يكن الموت هو العامل الوحيد الذي أدى إلى نقصان اليد العاملة الزراعية، بل ساهم فيه كذلك تسليم بعض سكان المناطق المتضررة من المجاعات لذويهم وأنفسهم للنصارى مقابل الطعام ؛ كما حدث على سبيل المثال لا الحصر أواخر النصف الأول من القرن السابع هـ/XIII م على إثر مجاعة شديدة في بادس[39]. وأثناء المجاعة الشديدة لعام 928 هـ/1522 م باع "العديد" من مغاربة النصف الشمالي من المملكة وخصوصا القاطنين في السهول الأطلنتية بناتهم وإخوانهم وحتى أنفسهم مقابل الأكل، وقدر عدد هؤلاء الذين دخلوا شبه الجزيرة الإيبيرية بقرابة 100.000، واستمرت هذه التجارة حتى جاء الطاعون ليجعل هذا النوع من الاتجار خطيرا. لقد كانت النتائج الديموغرافية لهذه الهجرة خطيرة على المدى القريب والمتوسط وحتى البعيد، بحيث أن هؤلاء المهاجرين كانوا من الساكنة الفتية، ومن النساء اللواتي هن في سن الخصوبة[40]. وبعدما أصيب سكان إقليم دكالة إبان حكم الوطاسيين بالطاعون اضطروا إلى بيع نسائهم وأولادهم للبرتغاليين ثم تسليم أنفسهم لهم كعبيد للحصول على القوت[41]. ولم يكتف المتضررون بالمجاعات ببيع أنفسهم للنصارى بل هاجروا، أحيانا، بشكل طوعي إلى شبه

---

[36] سأضع طيلة هذا البحث كل أحكام القيمة المشابهة بين مزدوجتين انسجاما مع ما أثرته في المقدمة من مشاكل تعترض طريق الباحث في الموضوع.

[37] عثمان المنصوري، « انعكاسات الاحتلال البرتغالي على الأوضاع الاقتصادية بمغرب القرن 16 م »، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1، عين الشق، الدار البيضاء، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، العدد 7، عدد خاص، 1990 م، ص. 143-144.
B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 134-135.

[38] Ibid, pp. 120-122

[39] البادسي، المقصد، ص. 61.

[40] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 128, 134.

[41] مارمول، إفريقيا، ج 1، ص. 111.

الجزيرة الإيبيرية كما حدث إثر مجاعة سنة 919 هـ/ 1513 م حين هاجر بعض العرب المقيمين في دكالة طواعية إلى البرتغال، وعرضوا أنفسهم كعبيد لمن يعولهم[42]. أما بعض القرويين الذين لم يهاجروا إلى إسبانيا والبرتغال، فقد اختار بعضهم الهجرة إلى المدن، وهذا ما حدث مثلا مع المجاعة التي نجمت عن الجفاف المصحوب بالجراد الذي ضرب المناطق الجنوبية سنة 947-948 هـ/ 1541 م مما دفع بعض سكان المنطقة إلى الرحيل إلى مدينة فاس[43].

وإذا كان من البديهي القول إن حدة الأوبئة من الناحية الديموغرافية كانت أخف في المناطق الجبلية لعزلتها النسبية وبعدها عن المحاور التجارية الرئيسية، وكذا في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية[44]، مما أهلها لأن تكون بمثابة خزان لملء الفراغ السكاني الحاصل في السهول[45]. فإنه يجب الانتباه إلى أن هذا الأمر إذا كان يؤكد ضمور النشاط الفلاحي نتيجة النقص الديموغرافي في المناطق المتضررة، فإنه يحتم من جهة أخرى عدم إغفال أن التعمير لم يكن بالضرورة لينفخ روح الحركية في الأنشطة الاقتصادية ومنها الزراعية، ذلك لأن نمط السكان المعمرين كان يختلف عن نمط المناطق المُعمرة. فما حصل هو تعويض عددي وليس كيفي، حيث تأتي عناصر لا علاقة لها بالاستقرار الذي تتطلبه الفلاحة، ليتم التحول من نشاط فلاحي مستقر إلى نشاط رعوي ـــ ترحالي.

ولم يتضرر العمل الزراعي وتتقلص المساحات المزروعة بفعل فقده للطاقة الإنتاجية لليد العاملة فقط، بل فقد أيضا طاقة إنتاجية أخرى

---

[42] الوزان، وصف، ج 1، ص. 63.

[43] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 148, 150.

[44] لم تبق المناطق شبه الصحراوية بمنأى كلي عن الأوبئة، إذ ثمة إشارة إلى تعرض واحات توات سنة 899 هـ/ 1494 م لمجاعة خطيرة تبعها وباء فتاك، البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 66.

Ibid, p. 115.

[45] نعلم مثلا أنه عقب النزيف الديموغرافي الذي أحدثه الطاعون الأسود في منطقة سوس هاجرت بعض القبائل الصحراوية إلى هذا الإقليم. ويروي المختار السوسي أنه سمع « بعض المطلعين يقولون أن حربيل دخلت سوس من الصحراء وهم بقية لمتونة وكدالة، وأن ذلك كان بعد الطاعون الأسود سنة 749 هـ. فخلاء كثير من جوانب سوس فقصدتها هذه القبائل »، إيليغ قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، 1966 م، ص، 239-240. نقلا عن : البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 50، 52-53.

مساعدة لها نتيجة نفوق "الكثير" من دواب الحرث من جراء القحط والأوبئة المتتالية[46].

وانعكس القحط وما يليه من مجاعات على النشاط الزراعي أيضا من حيث قلة المياه حينا وانعدامها في بعض الجهات أحيانا أخرى، مما أدى في بعض البوادي إلى توقف حركة الحراثة. وهذا ما يفهم من كلام ابن الخطيب عن الجفاف الذي عرفه المغرب عام 763 هـ/1361-1362 م[47]. وإذا ما توالت سنوات الجفاف لمدد طويلة فإنها كانت تسفر عن اجتثاث الأشجار، واستغلالها كوقود كما حدث مثلا إبان المجاعة الشديدة التي عرفها المغرب طيلة ثلاث سنوات منذ سنة 927 هـ/1520-1521 م[48].

ومن المسلم به أن موجات الجفاف أثرت بشكل سلبي على مستوى الفرشات المائية، والشبكة الهيدروغرافية عامة مما زاد من تفاقم النزاعات حول مصادرها (أنهار، وعيون، وآبار) خاصة في المناطق الجافة وشبه الجافة، وذلك بموازاة مع ضعف تقنيات استغلال المياه الموجودة[49]. وهكذا فقد زادت القحط من تعقيد مشكلة الأعالي والأسافل، إذ كان أهل الأعالي يستأثرون بمعظم الصبيب إن لم يحولوه بمجمله لصالحهم، مما كان يعرض الأسافل للضرر، فيقع الطرفان في النزاع نتيجة التملك الجماعي للماء. فالمزارعون الأسافل كانوا يدعون بأن غراستهم قامت على مياه نهر معين، بينما كان المزارعون الأعلون يرون أن منافسيهم إنما كانوا يغرسون على ما فضل من مائهم[50].

ويمثل الصراع بين أهل أزكَان وأهل مزدغة السفلى خير نموذج للصراع بين الأعالي والأسافل، وهو صراع دام حسب ما جاء في النازلة من ربيع الأول 721 هـ/أبريل 1321 م إلى ربيع الأول

---

[46] البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 59.

B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 143-144.

[47] أبو عبد الله لسان الدين بن الخطيب السلماني، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، الجزء الثاني، نشر وتعليق، أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985 م، ص. 318.

[48] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 120

[49] محمد الطويل، « الفلاحة المغربية في العصر الوسيط »، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1987-1988 م، (مرقون)، ص. 26-29، 96.

[50] عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص. 419.

824 هـ/1421 م[51]. والظاهر أن لهذا الصراع علاقة بالقحط الذي عرفه المغرب خلال هذه الحقبة التاريخية، والذي تكرر إحدى عشر مرة وأدى إلى تناقص المياه مما حدا بأهل أزكّان إلى الاستئثار بماء النهر، ومنعه عن أهل مزدغة. ويتأكد هذا الاستنتاج من خلال الاستعانة ببعض السنوات الواردة في النازلة لتحقيقها على ضوء ما هو متوفر من معلومات حول سنوات الجفاف، التي عرفها المغرب الأقصى خلال الحقبة الزمنية نفسها. فكما هو وارد فإن الرسم الأول المثبت في النازلة كتب في ربيع الأول سنة 721 هـ/أبريل 1321 م وهي السنة التي شكلت بداية لموجة من الجفاف دامت إلى سنة 724 هـ/1324 م دون انقطاع. والرسم كتب في شهر أبريل في وقت تكون فيه المزروعات في حاجة إلى السقي[52].

ومن خلال فتاوى بعض الفقهاء حول هذه النازلة نفسها، احتمل أحد الباحثين[53] أن تكون لفتوى أبي الضياء مصباح الياصلوتي (ت. 750 هـ/ 1349-1350 م) علاقة بقحط سنة 744 هـ/ 1344 م لاسيما أن أحد الرسوم أشار إلى أن أهل أزكّان قطعوا الماء عن أهل مزدغة خلال السنة المذكورة[54]. كما توقع[55] أن تكون لأجوبة أبي القاسم محمد التازغدري (ت. 833 هـ/ 1429-1430 م) وأبي محمد عبد الله العبدوسي (ت. 846 هـ/ 1412-1413 م) علاقة بالقحط التي ضرب المغرب بين نهاية القرن الثامن هـ/نهاية XIV م ومنتصف القرن التاسع هـ/15 م. وإن كان هذا الربط مستبعدا إلى حد ما لأن المغرب لم يعرف خلال هذه الحقبة الممتدة لنصف قرن سوى فترات محدودة ومتفرقة من القحط، أولها سنة 795 هـ/1392 م[56]، وثانيها زمن السلطان أبي فارس

[51] الونشريسي، المعيار، ج 8، ص. 5-20. [فقهاء فاس : أبو إبراهيم، أبو الحسن الصغير، أبو الضياء مصباح، أبو الربيع سليمان بن عبدون السريفي، أبو القاسم التازغردي، أبو محمد عبد العزيز التازغدري، أبو موسى بن عمران بن معطي العبدوسي].

[52] يقول الوزان : « وإذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت غلة القمح منعدمة في البوادي ». وصف إفريقيا، ج 1، ص. 81.

[53] عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص. 415.

[54] الونشريسي، المعيار، ج 8، ص. 9.

[55] عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص.. 415.

[56] نفسه، ص. 365.

عبد العزيز بن أحمد بن أبي سالم (796-799 هـ/1393-1396 م)[57]، وثالثها سنة 815 هـ/1412 م[58]، ورابعها سنة 816 هـ/1413 م[59].

إن نقصان المياه بفعل موجات الجفاف خلق أيضا نزاعات بين أصحاب الجنات وأصحاب الأرحى (الدقاقون). وفي هذا الصدد ربط الأستاذ مزين، في معرض تقديمه لوثيقة تاريخية تتعلق بقضية توزيع مياه وادي مصمودة بين الطرفين المذكورين، بين هذه النازلة وبين المجاعة والوباء اللذين ضربا المغرب سنة 845 هـ/1440 م وداما 18 شهرا، وهي السنة التي تزامنت مع تحرير الرسم العدلي الوارد في الوثيقة[60]. وإذا كان تفسير هذا الخلاف لا يقتصر على العوامل الطبيعية وحدها، فالظاهر أنها ساهمت فيه بشكل أو بآخر. ذلك لأن الصراع بين الرحويين والجنانين، كان يعد من الظواهر البنيوية في البادية المغربية، وأن النزاعات بين الطرفين تحكمت فيها الظروف الطبيعية والأعراف والتقاليد المحلية وطرق استغلال المياه[61].

وإلى جانب مشاكل قلة المياه المرتبطة بالقحط، نجد مشكل الأرض كذلك. فمن المعلوم أن الأراضي الجماعية كانت تحتوي على بعض الملكيات الخاصة، وكان بإمكان المالك لها أن يبيع نصيبه أو يتصرف بأنواع التفويتات الأخرى. لكن هذا التصرف كان يفرز نزاعات بين الفرد والجماعة، وكان المعترضون يلجأون لحق الشفعة الذي ضمنته

---

57 أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الغرناطي، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1411 هـ/ 1991 م، ص.، 50.

58 ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 238.

59 نفسه، ن.ص. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 1، ص.، 348. ج 2، ص. 475. ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص. 15. أحمد بابا التنبكتي السوداني، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، الجزء الثاني، دراسة وتحقيق محمد مطيع، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1987 م، (مرقون)، ص. 444.

60 ابن القاضي، لقط الفرائد، ص، 238. محمد مزين، « وثيقة جديدة حول توزيع المياه بفاس المدينة القديمة (عدوة الأندلس) في أواخر العصر المريني »، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، العددان 2-3، 1979-1980 م، ص. 397. قمين بالإشارة إلى أن الوباء الذي ضرب المغرب لمدة 18 شهرا كان سنة 846 هـ وليس 845 هـ، ونعلم أيضا أن هذا الوباء لم يكن مصحوبا بمجاعة.
B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 113.
فإذا سلمنا بأن سنة العقد هي سنة الوباء فإن السؤال المطروح هو ما علاقة الوباء بقلة المياه التي تسببت في النزاع بين أصحاب الجنات والرحويين ؟

61 عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص.، 372، 408-422.

لهم الأعراف لمنع دخول الأجنبي[62]. غير أن الراغبين في البيع، تحت ضغط النتائج المترتبة عن القحط والمجاعات والأوبئة على حد سواء، مارسوا بعض الحيل لتمرير صفقاتهم ومنها البيع بالثنيا (أي إلى أجل)[63]. وقد ساهمت هذه الكوارث في تأجيج هذه الظاهرة، حيث كان المتضررون منها يبيعون نصيبهم للمتوفرين على قاعدة مادية صلبة[64]. الشيء الذي زاد من حدة التفاوت الاجتماعي في البادية المغربية. ولعل ذلك التفاوت هو الذي كان يدفع بأولئك الذين باعوا حظوظهم بفعل ضغط الظروف المشار إليها إلى المطالبة، بعد تحسن أوضاعهم المادية، باسترجاع ما ضاع منهم في تلك الظروف الصعبة[65]. والظاهر أن بعض الفاشلين في مسعاهم هذا كانوا يضطرون إلى مغادرة البادية بعد فقد مصدر عيشهم المحدود أصلا، وبذلك ساهموا بدورهم في استنزاف اليد العاملة الزراعية. والمؤكد أن المجاعات والأوبئة أفرزت فعلا ظاهرة التخلي عن الأراضي، وتكاثر ظواهر الغصب "وخرق القواعد التي يقوم عليها نظام تملك واستغلال الأرض الجماعية"[66].

وقمين بالإشارة إلى أن الطواعين والأوبئة ساهمت هي الأخرى في مشكل الأرض، عبر تشتيت الملكية الزراعية بسبب توزيع التركة أو بأسباب أخرى[67].

وكما تضرر المزارعون من جراء القحط والمجاعات والأوبئة، فإن حظ الرعاة لم يكن أحسن منهم. فلا غرو أن القحط أدت إلى "تقلص" المجالات الرعوية، ونفوق "العديد" من رؤوس الماشية. وكانت موجات الجفاف تذكي النزاع بين القبائل الرعوية حول المجالات المذكورة لتوفير المراعي لقطعانها، على حساب القبائل الأخرى. وهذا ما حدث مثلا خلال النصف الثاني من القرن الثامن هـ/XIV م وطيلة القرن التاسع هـ/XV م بين قبائل بني معقل وسكان الواحات وقبائل الرحل من صنهاجة وغيرهم،

---

[62] نفسه، ص، 249-250.

[63] عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص، 260-261.

[64] نفسه، ص، 256.

[65] أبو فارس بن عبد العزيز بن الحسن الزياتي، الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل في جبال غمارة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : 1698 د، ج 2، ص. 204 [سئل عنها أبو محمد عبد الله العبدوسي (ت. 863 هـ)] نقلا عن عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص. 262-263.

[66] عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص، 262.

[67] ابن هلال، أجوبة، ص. 89-90.

لتداخل مواطنها[68]. وقتل طاعون سنة 763 هـ/ 1361-1362 م الكثير من عرب سفيان (بطن من جشم وهم من بني هلال) الذين كانوا في غالبيتهم يشتغلون بالرعي[69]. وإذا ما علمنا أن الطاعون قد ينتقل من الماشية إلى الآدميين، وعرفنا كثرة القطعان في المنطقة التي كانوا يمارسون فيها نشاطهم، فهمنا الخسائر التي تكبدوها. كما أسفر الطاعون الذي استمر ثلاث سنوات، أيام حكم الوطاسيين، إلى هلاك "العديد" من سكان الشاوية، الذين كانوا يشتغلون بدورهم بالرعي[70]. وعلى إثر مجاعة سنة 919 هـ/1513 م هاجر بعض العرب المقيمين في دكالة طواعية إلى البرتغال، وعرضوا أنفسهم كعبيد لمن يعولهم[71]. وتكرر شيء قريب من هذا، لكن بحجم أكبر إبان مجاعة وطاعون 927-929 هـ/1520-1522 م[72]. ومعلوم أن جل هؤلاء كانوا يشتغلون بالرعي كنمط عيش عرفوا به منذ دخولهم إلى المغرب.

وزاد النشاط الرعوى "تضررا" من جراء استغلال الأسود وحيوانات أخرى للتراجع الديموغرافي الناتج عن القحط والمجاعات والأوبئة للهجوم على ما تركته هذه الجوائح من قطعان المواشي. وهذا ما حدث مثلا في السهول الغربية، حيث تسربت هذه الحيوانات إلى المناطق الساحلية كالمعمورة التي كثيرا ما افترست فيها الأسود الدواب والناس معا[73]. وعلى العموم فإنه كلما اشتدت الحرارة، كظروف القحط، إلا وزادت شراسة الأسود وجرأتها، كتلك التي وجدت بين تامسنا ومملكة فاس[74].

هكذا يمكن القول إن موجات الجفاف والمجاعات والأوبئة لم تسمح بحدوث طفرة فلاحية، وإنما ساهمت بقسط لا بأس به في تقلص

---

[68] أحمد البوزيدي، « التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17 مطلع القرن 20)، دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال الوثائق المحلية »، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1408 هـ/ 1988 م، (مرقون)، ص. 125.

[69] ابن الخطيب، نفاضة، ج 3، ص. 90.

[70] مارمول، إفريقيا، ج 2، ص. 126-127.

[71] الوزان، وصف، ج 1، ص. 63.

[72] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 128, 134-135.

[73] الوزان، وصف، ج 1، ص. 210. راجع أيضا : أحمد بوشرب، « أزمة ضمير المغربي خلال القرنين 16 و17 »، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، دراسات في تاريخ المغرب، شعبة التاريخ، عدد خاص : 2، سنة 1406 هـ/ 1985 م، ص. 78.

[74] الوزان، وصف، ج 2، ص. 265-266.

المساحات المزروعة وما ترتب عنها من نقص في الإنتاجية، و"انتشار" الرعي على حساب الزراعة والغراسة. وإجمالا أسفرت عن إحداث خلخلة في التوازنات الاقتصادية للمزارعين والرعاة، الذين لم يكن بوسعهم أمام هذه المشاكل المتعددة والمتنوعة، وضعف أساليب مواجهتها سوى هجرة الأرض، أو البحث عن وساطات حقيقية أو وهمية للحماية كاللجوء إلى أولياء العصر لطلب المساعدة[75]، مقتفين أثر أسلافهم في ذلك[76]. فما هي تجليات القحط والمجاعات والأوبئة على الحرف والتجارة ؟

أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الحرف والتجارة :

يمكن القول إن الضرر الذي لحق بالنشاط الفلاحي من جراء هذه الكوارث ترك بصماته السلبية على النشاطين الحرفي والتجاري لأن البادية كانت هي المزود الأول للنشاطين معا بالمواد الأولية. كما انعكس النشاط التجاري على النشاط الحرفي لأنه كان يشكل الرئة الذي تتنفس منها المنتوجات الحرفية.

لقد أسفر القحط والمجاعات والأوبئة عن موت « العديد » من اليد العاملة الحرفية. ولا غرو أن الفقر الذي عاش فيه قسم عريض منها ساهم بشكل كبير في موتها، فقد كانت قدرتها ضعيفة على مواجهة هذه الشدائد، ولعل ابن عباد خير من عبر عن هذا الوضع المأساوي للفقراء أيام الطاعون العظيم : فالمعدمون كان "يتخطفهم الطاعون واحدا واحدا وجماعة جماعة

---

[75] البادسي، المقصد، ص. 123. الماجري، المنهاج، ص، 141، 143-144. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي، كتاب السلسل العذب والمنهل الأحلى، تحقيق، محمد الفاسي، مجلة المخطوطات العربية، القاهرة، الجزء الأول، المجلد العاشر، 1964 م، ص. 87. محمد الحسني بن عسكر، الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق، محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، سلسلة التراجم، طبعة ثانية، مصورة بالأوفسيط، الرباط، 1397 هـ/ 1977 م، ص. 79-81، 106.

[76] التادلي، التشوف، ص. 253، 474. أبو عبد الله بن محمد الوراق، مناقب سيدي عبد السلام بن مشيش، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : 1484 د، ضمن مجموع، ص. 246-247.

(...) فلا فرق بينهم وبين القطوط والكلاب، وقد يصبح بعضهم في أزقة المدينة وقد أكل الكلاب بعضه وجروه ويمرون عليه بمنزلة جيفة من الجيف"[77].

وكان الوضع يتفاقم في المدن أيام الأوبئة لأن هذه كانت تجد مرتعا خصبا لها في المدن عامة، وفي المدن الموفورة العمران خاصة، نتيجة فساد الهواء بسبب كثرة البنايات[78]، والاختلاط الذي وفر المناخ الملائم لانتشارها[79]. وهذه هي المدن التي عُرفت بحركيتها الحرفية والتجارية المهمة، وفي مقدمتها مدينة فاس التي ضرب بها ابن خلدون المثال في هذا الإطار[80].

لقد تعرضت هذه المدينة، التي كانت تعد بمثابة العاصمة الاقتصادية للمغرب خلال الحقبة التاريخية المدروسة، إن جاز التصنيف، إلى سلسلة من الأوبئة قضت على "العديد" من سكانها ومنهم الحرفيون والتجار. وإذا كانت إشارة ابن خلدون السابقة، تحيل في الغالب على ما شهدته أيام الطاعون الأسود، فإن المصادر تتضمن أمثلة أخرى ؛ فخلال وباء سنة 845-846 هـ/1441-1442 م الذي دام ثمانية عشر شهرا، وعرف بوباء عزونة[81]، توفي في فاس، حسب مصدر برتغالي للراهب (Fr Joào Alvares) 400 إلى 500 شخص في بضعة أيام[82]. وحسب الأستاذ مزين[83] فإن هذا العدد كان يموت في مدينة فاس يوميا. إلا أنه لم يكشف عن مصادره في الموضوع.

بعد ذلك عرفت المدينة نفسها خلال وباء 873-874 هـ/1468-1469 م وفاة 400.000 ضحية[84]. وفي الوقت الذي كانت مدينة فاس

---

[77] أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي، الرسائل الكبرى، طبعت بتصحيح، أحمد بن محمد المهدي بن العباس بن صابر البوعزاوي، طبعة حجرية، 1320 هـ، ص. 130، 231. راجع أيضا الهامش رقم : 15 من هذا البحث.

[78] ابن خلدون، مقدمة، ص، 376-377. ابن الأزرق، بدائع السلك، ج 2، ص. 271.

[79] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 122.

[80] ابن خلدون، مقدمة، ص، 376-377. ابن الأزرق، بدائع السلك، ج 2، ص، 271.

[81] ابن القاضي، لقط، ص، 250. ابن القاضي، جذوة، ج 2، ص. 535. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الرابع، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954 م، ص. 101.

[82] البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 64
B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 113. .

[83] مزين، « وثيقة جديدة »، ص. 397.

[84] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 113.

تتأهب لاستقبال وفود الأندلسيين المهاجرين، ومن فيهم من حرفيين مؤهلين، ذوي خبرة عالية، تعرضت لمجاعة وطاعون أواخر سنة 898 هـ/1492 م أديا إلى فرار الكثير منهم، ورجوع بعضهم إلى الأندلس، "فأخبروا بتلك الشدة فتقاعس من أراد الجواز"[85]. وحسب ابن سلمون فإن الطاعون الذي أصاب ساكنة فاس سنة بعد ذلك، أي سنة 899 هـ/1493 م، نتيجة هجرة عدد من يهود الأندلس، أسفر عن موت أكثر من عشرين ألفا في المدينة والنواحي[86]. رغم الاحتياطات التي اتخذها الوطاسيون[87].

وفي نهاية شهر ماي 1519 م/925 هـ ضرب وباء آخر المدينة متسببا في موت "عدد كبير" من سكانها[88]. وفي عام 965 هـ/أكتوبر 1557 م ضرب وباء عدوتي الأندلس والقرويين وما لبث أن أصاب في شهر فبراير سنة 1558 م ملاح اليهود برمته فتوفي 1640 يهودي، وأصيب "كثير" من سكان المدينة[89]. والراجح أن وفاة العدد المشار إليه من اليهود أثر سلبا على النشاطين الحرفي والتجاري نظرا للمكانة التي كان يتبوؤها هؤلاء في هذين المجالين. ومع حلول شهر غشت، عرفت فاس وفاة ما بين 1000 إلى 1500 شخص يوميا، وحسب مصدر آخر وفاة 3000 ضحية يوميا وهذا أمر مبالغ فيه[90].

وبعيدا عن فاس أدت المجاعة والوباء اللذين عرفتهما مدينة أصيلا عام 927 هـ/1520-1521 م إلى وفاة "الكثير" من سكانها. ففي آخر يناير من السنة المذكورة تراوح عدد الموتى ما بين خمسة إلى ستة أشخاص في اليوم، وارتفع عددهم في فبراير ومارس إلى ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين ضحية في اليوم، إلى جانب "عدد مهم" من المرضى.

85- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، الجزء الأول، ضبط وتحقيق وتعليق، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1398 هـ/ 1978 م، ص. 68.

86- B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 114.

87- البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 65.

88- B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 119.

89- Ibid, pp. 152-153.

90- Ibidem.

وإجمالا خلف هذا الطاعون الذي دام في أصيلا من يناير إلى يوليوز 1522 م، أكثر من 1200 ضحية[91].

إن تأثر الحرف من جراء المجاعات والأوبئة لم ينتج عن وفاة اليد العاملة الحرفية فقط، بل كذلك عن فرار العديد من سكان المدن. فأثناء المجاعة التي عرفتها مراكش زمن الرشيد الموحدي (630-640 هـ/1232-1243 م) آثر "العديد" من فقراء المدينة ــ واليد العاملة الحرفية طبعا جزء منهم ــ الفرار بأنفسهم منها، "ولم يبق بالبلد إلا الأقل ممن لا يستطيع خروجا"[92]. وإبان الوباء الذي عرفته مدينة فاس عام 965 هـ/1557 م فر "العديد" من سكانها إلى جهات مختلفة، لاسيما بعد اشتداد حدته في فبراير 1558 م، واستمر الوضع إلى نهاية شهر يوليوز أو غشت حينها تمكن أولئك الفارون من العودة [93].

وتناقصت اليد العاملة الحرفية أيضا، من جراء ما تعرض له بعضها من استرقاق وأسر، من طرف الغزاة البرتغاليين والإسبان. فقد كان من نتائج مجاعة سنة 927 هـ/1520-1521 م التي دامت ثلاث سنوات، إذ لم تنته تقريبا إلا سنة 1524 م أن أخذ "العديد" من سكان آسفي وأزمور عبيدا أو أسرى من طرف المسيحيين، الذين حملوهم "بكثرة" إلى إيبيريا والجزر التابعة لها[94]. وأمام اشتداد مجاعة سنة 928 هـ/1522 م باع سكان "المدينة" الواقعة بين آسفي وآزمور أنفسهم وأبناءهم مقابل كسب القوت، حتى أصبحت "المدينة" مقفرة[95]. وحسب مصدر برتغالي فإن هذه المجاعة دفعت العديد من المغاربة إلى بيع بناتهم، وإخوانهم، وحتى أنفسهم مقابل الأكل، وقدر عدد المغاربة الذين دخلوا إسبانيا وحدها دون البرتغال بـــ 60.000، واستمرت هذه التجارة حتى جاء الطاعون ليجعل

---

91 B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 119-122, 128.

92 ابن عذاري، البيان الموحدي، ص. 325-326.

93 B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 152-153.

94 Ibid, p. 120.

أحمد بوشرب، « أزمة ضمير »، ص. 74-75. وقد ذكر أن الإسبان والبرتغاليين اشتروا 100.000 مغربي.

95 مارمول، إفريقيا، ج 2، ص. 100.

هذا النوع من الاتجار خطيرا[96]. مما يفيد تضرر تجارة العبيد خوفا من العدوى.

لم تتأثر أوضاع الحرف من جراء الموت والفرار والأسر والاسترقاق، وتسليم النفس بضغط من المجاعات والأوبئة، بل أيضا بالعدد "الكبير" من المرضى، الذين أصبحوا فاقدين لقوتهم الإنتاجية.

وكنتيجة طبيعية لوفاة "العديد" من سكان المدن وتعرضهم للمرض، بما فيهم من حرفيين وتجار، من جراء المجاعات والأوبئة، اضمحلت وخربت "الكثير" من الورشات الحرفية[97]، والبنيات التحتية التجارية (حوانيت، طرق، قناطر...الخ). في سياق عام، أصيبت فيه "العديد" من المدن المغربية بالخراب من جراء الجوائح المذكورة. وتحفل المصادر المغربية الوسيطية، بإشارات كثيرة إلى هذا الموضوع، وكأن أخبار الخراب مجاز يحيل على العبرة[98].

فخلال المرحلة الأخيرة من حكم الموحدين للمغرب، عرفت البلاد مجاعات امتدت لسنوات طويلة، أصيبت على إثرها "العديد" من المنشآت الحرفية بالخراب. فمدينة فاس مثلا التي كانت تحوي، حسب الإحصاء الذي أنجزه مشرف المدينة الغريغر سنة 585 هـ/1188-1189 م، 469 فندقا، و9280 حانوتا، وقيساريتان، وداران للسكة، و3094 ورش للأطرزة، و47 دارا لعمل الصابون، و86 دارا للدباغ، و12 دارا لسبك الحديد والنحاس، و11 دارا لعمل الزجاج، و400 حجرا لعمل الكاغد، و888 دارا لصناعة الفخار، زيادة على دور الصباغين وحوانيتهم، وحوانيت الخناقين، والقصابين، والسفاجين، ومواضع طبخ الغزل، وأطرزة الحاكة، خرب أغلب هذه المنشآت أيام المجاعة والفتن التي كانت

---

96 B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 128, 134.

97 محمد زنيبر، « الصناعة في نسق ابن خلدون الاجتماعي »، ضمن أعمال ندوة ابن خلدون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 14-17 فبراير، 1979 م، ص. 305؛ البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 53، 59، 652.

Yves LACOSTE, Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire passé du tiers monde, François Maspero, Paris, 5[e] édition, 1980, p. 111. B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 144.

98 الخراب لغة هو ضد العمران. راجع مقال عبد الأحد السبتي، « علامات المدينة في الأدب الجغرافي : في دلالات الخراب »، ضمن التاريخ واللسانيات : النص ومستويات التأويل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992 م، ص. 21. وبعد قراءة المقال (ص. 11-25) يتضح أن الخراب الذي تحدث عن ذ. السبتي ارتبط غالبا بالحروب والفتن لا بالقحط والمجاعات والأوبئة.

أيام العادل (621-624 هـ/1224-1226 م) وأخيه المامون (624-629 هـ/1226-1231 م ؟)[99]. وقد عمم ابن أبي زرع وضع الخراب هذا على كل بلاد المغرب الأقصى، حين تولي هذا الأخير مقاليد الحكم[100].

وبالانتقال إلى منتصف القرن الثامن هـ/منتصف XIV م نجد أن الدمار الذي مس الحرف والتجارة، شكل إحدى أهم ملامح الخراب العام الذي أصاب المغرب من جراء الطاعون الأسود. فقد انكمشت الحركة التجارية بعد أن "قلت" المواد بالأسواق[101]، إثر تراجع الإنتاج واندثار "الكثير" من عناصر البنية التحتية المساعدة على نقل السلع داخل البلاد، من قناطر وطرق[102]. وهو ما عبر عنه ابن خلدون[103] باندثار "السبل والمعالم".

والظاهر أن مدينة مراكش تضررت "كثيرا" من جراء الطاعون الأسود، فابن بطوطة الذي زارها في منتصف القرن الثامن هـ/ XIV م، بعد عودته من الأندلس، وجدها "وقد استولى عليها الخراب"[104]. وتأكد هذا الوضع مع زيارة ابن الخطيب لها عام 761 هـ/1360 م، فوصف خرابها بالهائل والموحش[105]. فإذا ما قورنت هذه الوضعية بوصف العمري[106] لعمرانها، الذي سبق هذه الجائحة، يتبين مدى الدمار الذي وقع

---

[99] علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1411 هـ/ 1991 م، ص. 44-45.

[100] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 250.

[101] ابن عباد، الرسائل الكبرى، ص. 116.

[102] مصطفى نشاط، « التجارة »، ص. 387.

[103] ابن خلدون، مقدمة، ص، 43.

[104] محمد بن عبد الله بن بطوطة اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتب هوامشه، طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1407 هـ/ 1987 م، ص. 683.

[105] عبد الله لسان الدين بن الخطيب السلماني، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق، محمد كمال شبانة، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976 م، ص. 163. راجع أيضا قصيدة يصف فيها ابن الخطيب ما آل إليه أمر مراكش من خراب. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، دراسة وتحقيق، محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1973 م، ص. 376-377.

[106] أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر، ممالك إفريقيا ما وراء الصحراء، وممالك إفريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدوة

في هذه المدينة. وإجمالا فقد لخص ابن خلدون نتائج الطاعون الأسود بقوله : "وخربت الأمصار والمصانع"[107].

وأردف الطاعون الأسود بمجموعة من الطواعين الأخرى زادت الوضع تأزما، وبعض المدن خرابا. فقد ذهب أحد المحققين (مصطفى بوشعراء) إلى أن طاعون 764 هـ/1363 م تسبب في خراب مدينة سلا[108]. وفي سنة 776 هـ/1374 م كانت المجاعة العظيمة في المغرب "وعم الخراب"[109]. وخلال القرن التاسع هـ/XV م والنصف الأول من القرن العاشر هـ/XVI م يتأكد انطباع خراب العديد من المدن المغربية، حيث انمحت مدن بكاملها أو أهملت تماما كما وقع لمدينة مراكش فقد وصفها الوزان بالمدينة المسكينة القليلة السكان جدا، وأن ثلثيها غير مسكون[110]. ومن خلال التسع صفحات التي خصصها لهذه المدينة[111] التي نعتها بالعظمى، لم يفرد ولو سطرا واحدا لأنشطتها الاقتصادية، على غير عادته في وصف المدن الكبرى كفاس. والظاهر أن المدينة "بقيت لمدة طويلة تجتر آثار الانهيار الديموغرافي"[112]. وبعد الآثار المدمرة التي خلفها القحط والمجاعة الشديدين اللذين عاشهما المغرب سنة 927 هـ/1520 م، جاء المؤرخ البرتغالي المعاصر (Bernardo Rodrigues) في السنة الموالية (أي سنة

والأندلس، تحقيق وتعليق، مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1409 هـ/ 1988 م، ص. 129.

107 ابن خلدون، مقدمة، ص. 43.

108 أحمد بن عاشر الحافي، تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر، تحقيق وتقديم مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، مطابع سلا، الطبعة الأولى، 1409 هـ/ 1988 م، ص. 17 من مقدمة المحقق.

109 أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه، محمد الفاسي، أدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965 م، ص. 105.

110 الوزان، وصف، ج 1، ص. 128.

111 نفسه، ج 1، ص. 126-135.

112 البزاز، « أوبئة »، ج 1، ص. 52.

1521 م) ليؤكد ما أصاب شمال المغرب من خراب مهول[113]. وعموما يمكن القول مع ابن خلدون : إن "البلاد إذا تناقص عمرانها قل رزقها"[114].

ومن الانعكاسات الاقتصادية الأخرى للمجاعات والأوبئة على النشاطين الحرفي والتجاري، ضعف القدرة الشرائية للسكان خلال هذه الجوائح. فلا تكاد تمر مجاعة أو وباء إلا وتنص المصادر على غلاء الأسعار عامة، أو تشير إلى الأثمنة الجديدة للمنتوجات الزراعية خاصة، بما يفيد ارتفاع ثمنها دون أن تحيل في الغالب على الأثمنة المعتادة.

فخلال النصف الأول من القرن السابع هـ/XIII م، وحين عودة أبي الحسن الشاذلي من زيارة شيخه عبد السلام بن مشيش في طريقه نحو الشرق، وجد في فاس مجاعة وغلاء في السعر[115]. وحين تولى المامون الحكم سنة 624 هـ/1226 م كان المغرب وقتها يعيش تحت ضغط قحط وغلاء شديدين[116]. وأثناء المجاعة التي عرفتها مراكش زمن الرشيد (630-640 هـ/ 1232-1243 م) "انتهى المد الواحد من القمح الفحصي إلى سبعة دراهم كبار (...) وأما أسواق المدينة في هذه المجاعة فلم يكن بها ما ينطلق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه والحوانيت مغلقة"[117]. وفي سنة 637 هـ/1238 م عرفت مدينة سبتة مجاعة عظيمة وغلاء مفرطا "حتى عدم فيها الطعام بالكلية في هذا العام"[118]. وخلال سنة 666 هـ/1267 م عرفت مراكش مرة أخرى مجاعة وغلاء في الأسعار بفعل محاصرة يعقوب بن عبد الحق (656-685 هـ/1259-1286 م) للمدينة وأحوازها[119]. وبعد ذلك بحوالي 13 سنة وتحديدا سنة 679 هـ/1281 م عرف المغرب مجاعة بعد أن أكل الجراد الزروع برمتها حتى بلغ ثمن القمح إلى عشرة دراهم للصاع[120].

[113] محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1989 م، ص. 147.

[114] ابن خلدون، مقدمة، ص، 479. ويقول بصيغة أخرى : « واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ».

[115] الوراق، مناقب سيدي عبد السلام بن مشيش، ص. 246.

[116] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 250.

[117] ابن عذاري، البيان الموحدي، ص. 325-326.

[118] نفسه، ص. 351.

[119] ابن أبي زرع (؟)، الذخيرة السنية، ص. 114-115.

[120] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 405.

وفي سنة 693 هـ/1293 م تكالبت على المغرب مجاعة شديدة رفقة وباء عظيم، بلغ ثمن القمح خلالها إلى عشرة دراهم للمد، والدقيق درهم واحد لستة أواقي. وبعدها بسنة عادت الأسعار للانخفاض "فبيع القمح بعشرين درهما للصفحة، والشعير بثمانية دراهم"[121].

ومع حلول القرن الثامن هـ/XIV م وتحديدا سنة 723 هـ/1323 م ضربت المغرب موجة من القحط الشديد، فارتفعت الأسعار وبدأت تظهر المجاعة حتى إذا ما حلت سنة 724 هـ/1324 م "كان الغلاء العظيم والمجاعة الشديدة بالمغرب"[122]، وقد داما ثلاث سنين متصلة[123] ارتفع خلالها "السعر في جميع البلاد، وغلت الأسعار في جميع الأمصار، فوصلت صفحة القمح تسعين دينارا، ومد القمح خمسة عشر درهما، والدقيق أربع أواقي بدرهم، واللحم خمس أواقي بدرهم، والزيت أوقيتان بدرهم، والعسل كذلك، والسمن أوقية ونصف بدرهم، وعدمت الخضر بأسرها، دام ذلك من أول سنة أربع وعشرين إلى شهر جمادى الأولى من سنة خمس وعشرين"[124].

وجاء الطاعون الأسود سنة 749-750 هـ/1348-1349 م فأثر كثيرا على القدرة الشرائية للمغاربة وانعكس بالتالي سلبا على النشاطين الحرفي والتجاري. فقد كان ارتفاع الأسعار من أهم المضاعفات السلبية التي نتجت عن هذا الطاعون، فحتى الشعير الذي لم يكن يلتفت إليه، أصبح "اليوم لا يجده إلا أبو فلان وأما القمح فقد صار من جملة الأدوية التي يصفها الطبيب للمرضى"[125]. أما صاع الحنطة فقد قفز ثمنه من عشرة دراهم إلى خمسة عشر درهما أو أكثر، وانتقل ثمن "الباكور" (أي التين) من أربعين حبة بدرهم قبل الطاعون إلى درهم واحد لنصف الكمية أو أقل منها بعده، وقس على ذلك باقي المواد الغذائية الأخرى[126]. ويقدم ابن عباد وصفا بليغا عن التحول الذي أصاب الأسواق في مدينة فاس، من خلال المقارنة

---

[121] نفسه، ص. 384-385، 409.

[122] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 413.

[123] ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص. 324. ابن القاضي، لقط الفرائد، ضمن ألف سنة، ص. 181.

[124] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 401.

[125] ابن عباد، الرسائل الكبرى، ص. 207.

[126] نفسه، ص. 196.

التي قدمها عن أحدها قبل وبعد هذا الوباء، فيقول : "لا تكاد تسمع فيها بأذن من كثرة الصياح والضجيج، ولكن كل هذا فيما خلا من الزمان وأما اليوم فهو بمنزلة أحد أسواق الغبار الضعيفة التي تكون في البوادي"[127]. وتؤكد إحدى الحوالات الحبسية ضعف القدرة الشرائية إبان الطاعون الأسود، فقد أوصى رجل، من مدينة تازة في فراش موته، في صفر سنة 750 هـ/1349 م، للفقراء والمساكين بحصة من ميراثه "لشدة حاجتهم في هذا الوقت إليه لغلاء الأسعار وضعف الناس وضيق معايشهم"[128].

وفي سنة 763 هـ/1361-1362 م تسبب القحط الشديد المصحوب بالطاعون الذي أصاب مكناسة وفاس وتازا وغيرها في ارتفاع الأسعار، إلى أن نزل المطر فعادت للانخفاض[129].

ولعل ما حدث إبان مجاعة 775 هـ/1373-1374 م، أو مجاعة السنة الموالية على الأرجح[130]، ينهض دليلا على تأثر القدرة الشرائية حتى لبعض ميسوري الحال أو متوسطيه. فقد حلف رجل بالطلاق أن يتكفل طول حياته بمأكل رجل آخر فقير فكان "يعطيه عشرة أمداد من القمح في كل شهر من حين اليمين إلى أن جاء الغلاء وعدم القمح وأعطاه الشعير (...) ولهذه المدة العشرة أعوام سالفة عن التاريخ"[131].

ولم يتغير الحال كثيرا أثناء مجاعات وأوبئة القرن التاسع هـ/XV م والنصف الأول من القرن العاشر هـ/XVI م ؛ ففي أواخر سنة 1492 م/898 هـ عرفت مدينة فاس مجاعة وطاعونا وغلاء

[127] ابن عباد، الرسائل الكبرى، ص. 116.

[128] حوالة أحباس تازة، ج 6، ص. 305-308.

[129] ابن الخطيب، نفاضة، ج 3، ص، 61.

[130] الموضوع يتعلق بنازلة استفتي فيها أبو العباس القباب (ت. 779 هـ) وأخرى مماثلة إن لم تكن هي نفسها سئل عنها القاضي أبو سالم سيدي إبراهيم بن محمد اليزناسني (فاس، ت. 794 هـ). وإذا كانت هذه النازلة لا تحمل أي تاريخ فإن ما جاء في طيها من إشارة إلى 10 سنوات جعلني أرجح أن يكون الأمر يتعلق إما بمجاعة 775 هـ/ 1373-1374 م، أو مجاعة السنة التي تليها على اعتبار أنها تفصلها 12 سنة عن مجاعة سنة 763 هـ من جهة ومتزامنة مع الفترة التي عاش فيها الفقيهان المستفتيان.

[131] الونشريسي، المعيار، ج 4، ص. 125، 185-187. نازلة مماثلة سئل عنها أبو العباس القباب (ت. 779 هـ)، ج 4، ص. 97. راجع أيضا : أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد علي الونشريسي، المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأدب الموثق وأحكام الوثائق، ويسمى أيضا الفائق في الوثائق، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : 1447 د ضمن مجموع، ورقة، 59 أ.

دفعت « العديد » من السكان للفرار من المدينة[132]. وخلال الوباء الذي مس غساسة وقلعية سنة 899 هـ/1493 م سجل غلاء في الأولى[133]. وفي آخر سنة 913 هـ/1507 م شهد المغرب غلاء عظيما[134]. وعاد الغلاء في المواد الغذائية والمجاعة ليضربا المغرب من جديد عام 927 هـ/ 1520-1521 م، وازداد الأمر سوءا في السنة التي تلتها، ودام هذا الوضع ثلاث سنوات[135]. وكانت مدينة فاس من المدن التي شملها هذا الغلاء الكبير على حد وصف صاحب ممتع الأسماع[136]. ثم شهدت هذه المدينة ما بين أكتوبر 1552 م ويناير 1553 م جفافا ارتفعت على إثره الأسعار مما خلف مجاعة كبرى بلغ معها ثمن الصحفة الواحدة إلى 6 أوقيات[137].

إن ارتفاع الأسعار مع ضعف القدرة الشرائية للمغاربة في ظروف القحط والمجاعات والأوبئة، ساهما بشكل "كبير" في تضرر الحركة الحرفية والتجارية نتيجة قلة الإنتاج والرواج. فجل ما كان يملكه الناس، إن كانوا يملكون أصلا، وجه لاقتناء ما يسد به الرمق إن وجد بدوره دون المواد الأخرى ومنها المنتجات الحرفية[138]. ففي مثل هذه الظروف الصعبة وأمام قلة ما باليد كان يلجأ إلى مأكولات تعويضية، إن صح التعبير، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان سكان مدينة مراكش أثناء المجاعة الشديدة زمن الرشيد "إذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه (...) وسائر الأيام إنما يظهر في الأسواق ما يكرر طحنه من فيتور الزيتون

132 المقري، أزهار الرياض، ج 1، ص. 68.

133 حسن الفكيكي، « قلعية ومشكلة الوجود الإسباني بمليلة 1497-1859 م »، الجزء الأول، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1404 هـ/ 1984 م، (مرقون)، ص. 75.

134 ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 281.

135 نفسه، ص، 288

B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 119-120. -

136 محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، تحقيق وتعليق، عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة محمد الخامس، فاس، الطبعة الأولى، 1989 م، ص. 43. البحر الزاخر والعيلم التيار، ص. 527. نقلا عن : محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم، هـ، 27، ص. 146.

137 B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 150-151.

138 Ibid, pp. 143-144.

وغيره فهو كان غذاء الناس (...) وكذلك النارنج (...) وكان يباع في الأسواق خبز يعمل من تابودا التي تنبت في الصهريج وفي الأنهار والسواقي"[139].

وطبعا انعكس ضعف القدرة الشرائية الناتجة عن الجوائح المذكورة على القدرة نفسها للمشتغلين في الحرف والتجارة، وهو ما عبرت عنه جيدا إحدى الحوالات الحبسية التي تزامنت مع الطاعون الأسود، حيث غلت الأسعار، وضاقت المعايش[140].

وإذا كانت الحرف تأثرت بضعف القدرة الشرائية، فإنها تأثرت أيضا بالأسعار الزهيدة التي كانت تباع بها حاجات الموتى ضحايا المجاعات والأوبئة، وكذا حاجات الأحياء الباحثين عن الطعام، فتحول بعض الحرفيين والتجار إلى باعة للأثاث والملابس المستعملة[141]. وقد عبر ابن عذاري عن هذه الوضعية بدقة واصفا أسواق مراكش أثناء المجاعة السالف ذكرها بأنها كانت فارغة أو مغلقة وما بقي منها لا يبيع "إلا الأطمار المتغيرة الخلقة"[142]. وهذا ما يفيد "تطور" و"ازدهار" تجارة البالي على هامش المجاعات حتى لا نقول الأوبئة مخافة حصول العدوى.

وإذا كان الباحثان حميد التريكي و"برنار روزنبرجي" (Bernard ROSENBERGER) شددا على أن الخوف من الأوبئة شكل عائقا أمام الحرف، بالقدر نفسه الذي عطل الحركة التجارية[143]. كما وقع إبان طاعون 928 هـ/1522 م حيث كان للخوف من العدوى دوره في منع "العديد" من القوافل القادمة من فاس للدخول إلى أصيلا، فإننا نجهل إن كان قد مورس المنع نفسه في كل أنحاء المغرب[144]. والحقيقة أن موضوع تطبيق الحجر الصحي من عدمه في المغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط يلفه ضباب كثيف لا تساعد المصادر على انقشاعه.

---

[139] ابن عذاري، البيان الموحدي، ص. 325-326.

[140] حوالة أحباس تازة، ج 6، ص. 305-308.

[141] Jean-Noël. BIRABEN, « La Peste Noire », op.cit, p. 38.
B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 145.

[142] ابن عذاري، البيان الموحدي، ص. 325-326.

[143] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 143-144.

[144] Ibid, p. 143.

ففي الوقت الذي لم يكن بعض الفقهاء المغاربة يسلمون بعدوى الطاعون، وبالتالي عدم تطبيق الحجر الصحي خشية أن يعتبر ذلك هروبا من القدر[145]، فإنهم كانوا يعضدون رأيهم هذا بالاستناد إلى فكرة مفادها أن من مات بالطاعون عد من الشهداء[146] بما يفيد مواجهة الطاعون بذهنية سلبية زادت من العدوى و« تكاثر » الموتى وبالتالي نقصان اليد العاملة وما يليها من مضاعفات « كبيرة » على النشاط الاقتصادي عامة. وبالمقابل اقترب البعض الآخر من مفهوم الحجر الصحي وأقر بالعدوى. فالولي الصالح أبو مدين (ت. 594 هـ) لما حل الوباء في سلا « تزود لمدة وبنى باب منزله على أهله وهم كثير، ولم يرزأ في طول تلك المدة في نسمة واحدة »[147]. وبعده ألف الشيخ محمد بن يوسف بن عمران المزدغي (ت. 655 هـ) خطيب جامع القرويين تأليفا في قول الرسول صلعم : "إذا نزل الوباء بأرض فلا تخرجوا منه فرار" [148]. ويفهم من عنوان هذا التأليف على أنه دعوة لمنع الدخول والخروج من المكان الموبوء كوسيلة لمقاومة الطاعون، والحرص على عدم انتشاره في مناطق أخرى وكأنه بذلك حجر صحي. ثم جاء تأليف ابن الخطيب لكتابه "مُقْنِعَة السائل عن المرض الهائل" فهاجم من خلاله بعنف الفقهاء الذين كانوا يصدرون فتاوى تنفي وجود العدوى، ويحرمون بناء على ذلك كل لجوء إلى الإجراءات الوقائية وإلى العلاجات الطبية، محاولا إقناعهم بضرورة الإقرار بمسألة عدوى الطاعون ومواجهتها بموقف عقلي[149]. وإذا كان هذا الخطاب وجه إلى المنكرين لعدوى الطاعون في الأندلس، فمن المحتمل أن الموقف نفسه من الطاعون ساد لدى بعض المغاربة نظرا للتلاقح الثقافي الذي كان حاصلا باستمرار

---

[145] نادية بلحاج، « التطبيب والسحر في المغرب »، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، جامعة محمد الخامس، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1980-1981 م، (مرقون)، ص. 35. وتجدر الإشارة إلى أن أوربا شرعت في تطبيق الحجر الصحي انطلاقا من القرن XIV م بتزامن مع الطاعون الأسود.

[146] مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1404 هـ/ 1984 م، ص. 55. وطبعا لا تخفى مكانة الشهيد في الذهنية الإسلامية.

B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, p. 145.

[147] ابن الخطيب، مقنعة، ص. 10.

[148] ابن أبي زرع (؟)، الذخيرة، ص، 82، نص الحديث : " إذا وقع الطاعون في بلد وأنتم به فلا تخرجوا منه، وإذا كان ببلد فلا تدخلوه ".

[149] مصطفى نشاط، « التجارة »، ص. 391، هـ، 28.

A. OUMLIL, L'histoire et son discours, op.cit, p. 95.

بين العدوتين[150]. وتحديدا من جراء التنقلات الكثيرة لابن الخطيب بين الأندلس والمغرب.

إن السير الطبيعي للعملية التجارية إبان المجاعات والأوبئة، تضرر أيضا بفعل لجوء بعض التجار إلى المضاربة واحتكار الزرع، وباقي المواد الغذائية الضرورية، تحينا لأوقات الغلاء[151]. فقد اعتبر العقباني أن الزرع المختزن الذي يزيد عن حاجة أصحابه "من أعظم ما يجب تغييره والاحتساب في القيام به (...) زمن حاجة الناس إليه (...) في مسغبة أو مخمصة (...) إذ لا يصح أن يترك الناس [مُجَوَّعِين] وفي البلد طعام عند من يريده للبيع وما يشبه هذا من مصلحة العامة"[152]. وقد مورس هذا السلوك فعليا حتى قبل تنبيه العقباني هذا، لدى أشخاص يفترض فيهم تجنبه ومحاربته. فقد ثبت أن الخطيب أبا الفضل محمد بن الخطيب أبي الحسن المزدغي، خطيب جامع القرويين على عهد أبي الحسن المريني (731-752 هـ/1331-1351 م)، قد غرقت ذمته أثناء ممارسة خطة حفظ التركات وودائع أموال الأوقاف والأيتام المعتبرين بما وصل قدره ثلاثون ألف دينار ذهبية، فسئل إن كان باستطاعته رد ما بذمته فأجاب بعذر أقبح من زلته حين قال : "كان عندي زرع كثير معولا على ادخاره إلى سنة يرتفع فيها السعر فيوفي ثمنه بالمال وزيادة، فلما افتقدته، وكان نحوا من كذا، وقدرته بكذا، مما يبلغ هذا العدد، وجدت أولادي تصرفوا فيه، وليس في ذمتي الآن ما يفي بربعه"[153].

إن سلوك المضاربة ظل مترسخا في المغرب الأقصى أيام القحط والمجاعات، فأثناء الجفاف الحاد الذي عرفته مدينة فاس لمدة أربعة أشهر فقط من أكتوبر 1552 م إلى يناير 1553 م ارتفعت الأسعار كثيرا فنجم عن ذلك مجاعة كبرى إلى درجة أن ثمن الصفحة الواحدة من القمح وصلت إلى 6 أوقيات. والحقيقة أن ارتفاع الأسعار هذا كان نتيجة

---

150 نفسه، ن.ص.، ن.هـ.

151 ابن خلدون، مقدمة، ص. 497-498.

152 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في تغيير المناكر، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : 13 ك، ص. 155-156.

153 محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم، محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401 هـ/ 1981 م، ص. 230-232.

للمضاربة بعد أن تنبأ التجار بحصاد سيء دفعهم إلى الادخار، وكلما قلت الحبوب في الأسواق إلا وارتفعت الأسعار[154].

وإذا كانت الغالبية قد تضررت من أسلوب الاحتكار والمضاربة، فإن أقلية منها جنت ثمار هذه الحالة، فزادوا ثراءا، ولعل منهم أولئك الذين سماهم ابن عباد بـــ "المزبخين"، الذين كانوا يتلاعبون بألوان الطعام في كل يوم "في ديارهم ومنازلهم بين خدمهم وحشمهم ويريقون ما فضل منها في المجاري والقنوات"[155].

ويبدو أن الحركة الحرفية والتجارية على وجه الخصوص تأثرت أيضا ببعض الظواهر الاجتماعية التي رافقت أحيانا ظهور القحط والمجاعات والأوبئة. فقد أشارت النوازل إلى تفكير البعض زمن الوباء في إجراء حجر مالي على البعض الآخر لمنعه من التصرف في مدخراته إما بالصدقة أو غيرها[156]. ومن الراجح أن يكون بعض أولئك المحجور عليهم من المساهمين في العملية الاقتصادية.

إن الكساد الاقتصادي الذي طال التجارة داخل المدن من جراء نتائج القحط والمجاعات والأوبئة، طال أيضا الحركة التجارية بين المدينة ومحيطها، باعتبار هذا المحيط هو المزود الأول لأسواق المدينة بالمواد الغذائية، وفي مقدمتها الحبوب، وكذا بالمواد الأولية. وفي المقابل كانت المدينة تزود البادية بالأدوات المصنعة الخاصة بالنشاط الزراعي. ومن بين الأمثلة التي تفصح عنها المصادر في هذا الموضوع وضع مدينة مراكش إبان المجاعة التي تزامنت وحكم الرشيد الموحدي، فخلالها كانت كل أبواب المدينة مغلقة[157].

وتأثرت الحركة التجارية بين البوادي نفسها. فعلى الرغم مثلا من أن المناطق الجنوبية لم تتضرر بالطاعون الأسود، إلا أن آثاره عمت مجموع أنحاء البلاد. ذلك أن مخلفاته الديموغرافية في المناطق الشمالية أدت إلى تقلص المنتوجات الزراعية بشكل "كبير"، فلم تعد قبائل بني معقل

---

[154] B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 150-151.

[155] ابن عباد، الرسائل الكبرى، ص. 153؛ راجع أيضا : Ibid, p. 145.

[156] أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان الجدامي الفاسي الشهير بالقباب، أسئلة وأجوبة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : 1447 د ضمن مجموع، ص. 229-230. ابن هلال،أجوبة، ص. 162.

[157] ابن عذاري، البيان الموحدي، ص. 325-326.

وغيرها تجد في أسواق المناطق المشار إليها الميرة والأقوات الكافية لسد حاجاتها الضرورية[158].

وإذا كان هذا حال التجارة داخل المدن وبين المدن والبوادي، فإن المصادر المغربية - التي أمكن الإطلاع عليها - لم تكشف النقاب عما إذا كانت التجارة البعيدة المدى (الخارجية) تأثرت بدورها من جراء القحط والمجاعات والأوبئة، وإن كان من المرجح جدا أنها أصيبت هي الأخرى بنكسات من جرائها.

قصارى القول إن المجاعات والأوبئة كانت تنقض دوريا لتعرقل جهود الحرفيين والتجار، وتخرب الشروط اللازمة لتقدم حرفهم وتجارتهم. والراجح أن المشاكل التي أفرزتها هذه الجوائح أدت إلى إفلاس "العديد" من التجار وخاصة الصغار منهم، ويبدو أن بعضهم تحولوا إلى مجرد وسطاء تجاريين، بينما التحق بعضهم بصفوف العاطلين. فكيف واجهت السلطة الآثار الاقتصادية السلبية الناجمة عن القحط والمجاعات والأوبئة ؟ وهل استطاعت الحد منها بما في ذلك الوقوف في وجه سلوك المضاربة والاحتكار ؟

بغض النظر عن مشاركة بعض السلاطين في صلوات الاستسقاء، فإن السلطة القائمة أو بالأحرى بعض السلاطين، قاموا أيام المجاعات والقحط بمواساة الضعفاء، وتوزيع الصدقات لتطويق إطار الجوع والتخفيف من معاناة الجائعين... الخ. كما فعل السلطان أبو سعيد عثمان (709-731 هـ/1310-1331 م) أيام القحط والمجاعة الشديدين اللذين عرفهما المغرب طيلة ثلاث سنوات من 723 هـ/1323 م إلى 725 هـ/1325 م وما تبعهما من ارتفاع الأسعار، حيث فتح "أهراء الزرع وأخرجه للبيع، فبيع أربعة دراهم للمد والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما، وأمر بالصدقات، فلم يزل يفرقها بطول أيام الشدة، يمر بها الثقات على حارات المدينة فيعطونها أهل التستر والبيوتات وذوي الفاقات والحاجات كل على قدر حاله وضعفه، فكانوا يأخذونها من دينار ذهبا إلى ربع دينار"[159]. وتكرر التصرف نفسه أيام أبي الحسن (731-752 هـ/1331-1351 م) ففي سنوات الجدب كان يعيل فقراء

---

158 أحمد البوزيدي، « التاريخ الاجتماعي لدرعة »، ص. 129.

159 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 401.

المغرب عموما، ويخرج لهم الزرع المختزن الخاص به طيلة أيام المسغبة، وكان حريصا على تتبع العملية بنفسه، "ويلزم قواد قصب البلاد بذلك طول الجدب". وصار ابنه أبو عنان (749-759 هـ/1348-1358 م) على النهج نفسه من بعده[160].

ويتضح من خلال هذه الإجراءات السلطانية أنها لم تكن هيكلية بل مرتبطة بشخصية السلطان، مما يعني محدوديتها في الزمان[161]، وأنها كانت تهتم أساسا بالإطعام وسد الحاجيات الآنية للاقتيات، وكأنها تنافس الصوفية والزوايا في هذا المضمار، لكنها كانت عاجزة في المقابل عن مواجهة النتائج السلبية للقحوط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية. فهي لم ترغم التجار على إخراج ما بخزائنهم بوسائل الترهيب والزجر، وإرغامهم على بيعها بأسعار محددة سلفا، أو مصادرة حبوب المضاربين والمحتكرين لتفادي الغلاء أو الحد منه، وبالتالي عدم التفكير في الكيفية التي يمكن الحفاظ بها على صيرورة الأنشطة الاقتصادية وتطورها. صحيح أن الموارد المالية المستخلصة من الجبايات للسلطة كانت تتقلص أيام القحط والمجاعات والأوبئة بسبب « نقص » السكان، غير أن الحاصل هو أن السلطة لم تكن لها في الغالب سياسة اقتصادية واضحة حتى في أيام الرخاء، ولعل هذا يجد تفسيره في طبيعة

160 ابن مرزوق، المسند، ص.191. وللمقارنة كان بعض ملوك بني زيان جيران المغرب يقومون ببعض التصرف، ففي المجاعة الشديدة لعام 776 هـ « فافتقر الناس إلى ما عند الخليفة (...) فتصدق (...) بنصف جباية حضرته (...) كل يوم على ضعفائها تجمع آلافه العديدة فيقسم ذلك حفظته عدلا بينهم (...) [وأمر بفتح أهراء الزرع وبيعه للناس بعد الحط من سعره] ». أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الثاني، نشره ألفرد بيل Alfred BEL، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1322 هـ/ 1904 م، ص. 325-326.

161 إن الرخاء الذي تحدث عنه ابن بطوطة بالمغرب كان يصادف تقريبا الفترة المتراوحة ما بين 750-757 هـ/ 1349-1356 م أي في فترة ما بعيد الطاعون. ونفس الرخاء تحدث عنه ابن الخطيب في نفاضته، وابن قنفذ في أنس الفقير إذ تعرض للإمكانيات الفلاحية والحيوانية الهائلة لمنطقة دكالة حيث كان يشغل منصب القضاء. مصطفى نشاط، « التجارة »، ص. 389-390. ويرى الأستاذ القبلي في هذا الشأن أن خزينة الدولة المرينية قد حافظت على توازنها إلى حدود حدوث الطاعون، بل ولسنوات بعيد هذا الوباء بفعل السياسة التجارية التي تبناها أبو عنان (M. KABLY, Société, op.cit, p. 160.) وهذا يؤكد ما قلناه من محدودية إجراءات السلطة في الزمان، وارتباطها أكثر بشخصية السلطان، دون نسيان أن عهد أبي عنان، ورغم مشاكله، كان عهد قوة السلطة المرينية.

"نمط الإنتاج" الذي كانت تتبناه السلطة والذي يستخلص قسما مهما من مداخيله من التجارة البعيدة المدى[162].

ويعزو كل من حميد التريكي و"برنار روزنبرجي" (Bernard ROSENBERGER)، عدم قدرة الوطاسيين على مواجهة الآثار الاقتصادية للجفاف الحاد والمجاعة والطاعون الخطيرين لسنة 927 هـ/1520-1521 م، لعدم الوجود الفعلي للسلطة السياسية خاصة في السهول الأطلنتية، وما وجد منها لم يكن قادرا على ضمان تموين السكان. وعموما فإن ضعف المغرب الوطاسي، بالمقارنة مع الدول الإيبيرية في مواجهة هذه الكوارث، كان بسبب ضعف بنياته السياسية والمالية[163].

خلاصات :

هكذا يتضح أن الأنشطة الاقتصادية الثلاثة في مغرب أواخر العصر الوسيط تأثرت "كثيرا" من جراء ما جابهته من قحوط ومجاعات وأوبئة ألجمت تطورها، وحكمت على هياكلها الإنتاجية بالثبات والركود. ولئن كانت الضرورة المنهجية اقتضت تناول آثار هذه الكوارث على الأنشطة الاقتصادية بشكل منفصل، الفلاحة في المجال الريفي، والحرف والتجارة في المجال الحضري. فإن هذا لا يعني تأثر كل نشاط على حدة، إذ كلما تأثر نشاط منها إلا واشتكت من تضرره باقي الأنشطة الأخرى. فنحن أمام دورة اقتصادية كان ينعكس بعضها على الآخر نظرا للتداخل الكبير الحاصل بينها، فالحرف كانت تعتمد على الفلاحة في موادها الأولية، كما كانت تحتاج أحيانا للتجارة في تسويق منتجاتها المصنعة. والفلاحة كانت تحتاج إلى الحرف للحصول على أدوات العمل، كما كانت تحتاج للتجارة لتسويق منتجاتها أيضا. وهذه الأخيرة كانت تحتاج للمواد الفلاحية والحرفية لضمان حركيتها. وقد ضرب ابن خلدون[164] المثل بتأثر

---

162 محمد ياسر الهلالي، « مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/ XIV-XV م، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي : " العامة " - " الخاصة "، " الطبقة "، " المرتبة " »، الجزء الثاني، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1420-1421 هـ/ 1999-2000 م، (مرقون)، ص. 330-512.

163 B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », op.cit, pp. 125-126.

راجع أيضا : محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم، ص. 147.

164 ابن خلدون، مقدمة، ص. 499.

الفلاحة بالتجارة وتأثر الحرف بهما معا، ذلك أنه "إذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو مُتَمَوَّلٍ على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف، ولم يحصل التاجر إلا على العناء فقعد التجار عن السعي فيها، وفسدت رؤوس أموالهم. واعتبر ذلك أولا بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته أو فقده. فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة. ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضا بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولا (...) وكذا (...) فإن الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص، وكذا الغلاء المفرط أيضا".

تبين كذلك أن "النقص" الديموغرافي الناتج عن تواتر القحط والمجاعات والأوبئة طيلة أواخر العصر الوسيط قد أثر في الأنشطة الاقتصادية وأدى بها إلى التقوقع والانكماش عبر تعطيل البنيات الإنتاجية نتيجة تآكل قوى الإنتاج وتعرضها للتلاشي في بلد شكل فيه العنصر البشري الركيزة الاقتصادية الأساسية للبلاد، والعمود الفقري لتطوره الاجتماعي والاقتصادي لكونه محور كل المهام الاقتصادية[165]. لذلك فإن إعادة بناء اقتصاد مشلول بفعل هذه الجوائح، كان يتطلب مدة طويلة تظل خلالها الحياة الاقتصادية متذبذبة. ويمكن القول إن الجوائح التي ضربت المغرب أواخر العصر الوسيط وعلى رأسها الطاعون الأسود غيرت وجه المغرب، ورسمت به ملامح اقتصادية وديموغرافية ـ اجتماعية استمرت خلال العصور اللاحقة إلى حدود الحماية.

إن خلاصة من هذا القبيل حول الأضرار الاقتصادية للقحط والمجاعات والأوبئة، تكون لدى القارئ انطباعا بأنها عامل تفسيري مهم ومحدد لتحولات الحقبة التاريخية المدروسة وبنياتها. فهل الأمر فعلا كذلك ؟ سوف أجيب بالسلب وبطريقة تدريجية عن هذا السؤال بالعناصر التالية :

---

[165] هذا ما عبر عنه ابن خلدون بقوله : « فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية »، مقدمة، ص 478، مما يثبت أن العنصر البشري كان أساس التنمية.

أولا : إن القحط والمجاعات والأوبئة لم توقف بصفة كلية الأنشطة الاقتصادية لا سيما تلك الأوراش التي كانت تشرف عليها السلطة المالكة لاقتصاد البلاد، حيث وفرت لها كل الإمكانيات المادية اللازمة. وعلى سبيل المثال فقد تم بناء مدرسة الحلفاويين أو الصفارين سنة 679 هـ/1280 م في وقت تسلط فيه الجراد على المغرب[166]. كما تم تشييد مدرسة العطارين سنة 723 هـ/1323 م في فترة عم خلالها القحط بالبلاد[167].

ثانيا : إن الجوائح المذكورة، رغم ثقل مخلفاتها، لا تفسر كل التدهور الذي عرفه المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط ومنه تضرر الأنشطة الاقتصادية. فثمة عوامل أخرى تحكمت في حركية الأنشطة الاقتصادية. فعلى الباحث ألا يعلق على القحط والمجاعات والأوبئة كل مشاكل الأنشطة الاقتصادية وعوائقها. فهذه الكوارث لم تعمل إلا على تفاقم الأوضاع وتكريس الركود الاقتصادي في ظل مجتمع قبلي لم ينظر بإيجابية كبيرة إلى الفلاحة المستقرة والحرف، شأنه في ذلك شأن الصوفية الذين تزايدت أعدادهم خلال الحقبة المدروسة، وسلطة حاكمة لم تعمل على وضع خطة اقتصادية حقيقية وواضحة، بل لم تكن تهتم بالفلاحة والحرف والتجارة إلا بما تجنيه منها عبر سياسة جبائية مجحفة. أما التجارة الخارجية فقد احتكرت كل فروعها، وصرفت ما كان يترتب عنها من فائض مالي في مجالات غير منتجة على المستوى الاقتصادي. يضاف إلى كل هذا الآثار الوخيمة للحروب والفتن التي عرفها المغرب طيلة الحقبة المدروسة، أبيد من جرائها الكثير من الرجال والشباب خاصة، وتسببت بدورها في مجاعات محلية محدودة أو واسعة نوعا ما وكذا في بعض الأوبئة[168]. ولئن كان المغرب حافظ إلى حد ما على حركية أنشطته الاقتصادية بشكل أو بآخر، فإن ذلك لم يكن ناتجا عن فائض عائدات اقتصاده الداخلي، وإنما بفعل عائدات نمط المرور إلى حين انهيار عائدات هذا النمط بدوره بعوامل مختلفة داخلية وخارجية، ليس هذا مجال التوسع فيها، حالت دون القيام بأي إجراءات لوضع قطار الاقتصاد على سكته من جديد.

---

166 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 405.
167 نفسه، ص. 250.
168 هذا ما يستدعي في الحقيقة إضافة الحروب عند دراسة المجاعات والأوبئة في إطار عام يمكن تسميته بالشدائد.

ثالثا : خلافا لما هو متداول، فإن تجاوز أوربا والغربية منها خاصة للمغرب والتطور غير المتكافئ بينهما لم يبدأ أواخر العصر الوسيط بل بدأ منذ القرن الخامس هـ/XI م، وهذا نعرفه من دراسة "موريس لومبار" (Maurice LOMBARD)[169] الشهيرة حول الإسلام في عظمته الأولى حين بدأت أوربا تعرف ظاهرة التمدين بارتباط مع ما سمي بالثورة الفلاحية الأولى التي شهدت حركة لتطوير التقنيات الزراعية، وتحسين الأساليب وبالتالي الإنتاج.

رابعا : عاش المغرب إلى جانب أوربا مضاعفات الطاعون الأسود منتصف القرن الثامن هـ/ منتصف XIV م، لكنه لم يمنع أوربا من الخروج بنسقها الاقتصادي والاجتماعي الجديد، بينما خرج المغرب منه في أوضاع مختلفة.

قصارى القول إني لا أعتقد أن القحط والمجاعات والأوبئة كانت عاملا محددا بقدر ما شكلت عاملا كاشفا للبنيات والنسق. ذلك أننا عندما ننظر إلى هذه الجوائح على المدى البعيد فإنه لا يمكن اعتبارها اختلالات بالمعنى الكامل للكلمة لأن إيقاعاتها تبدو أقرب إلى المعطى البنيوي. غير أن هذا القول لا ينبغي أن يؤدي بنا كلية إلى إسقاط ما هو حاضر على ما هو ماض ؛ فالسلطة والمجتمع في المغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط وإن كانا يدركان أن هذه الجوائح هي ذات طابع بنيوي، فإن الإمكانيات الاقتصادية والتقنيات المتوفرة، خاصة بعد انهيار عائدات نمط المرور، لم تكن تسمح بالوقوف أمامها كلية وخلق بنية اقتصادية بديلة تماما لاسيما أن المغرب تكالبت عليه العديد من المجاعات والأوبئة بعد الطاعون الأسود (انظر الجدول) التي لم تغادره حتى وهو في عهد الحماية كمجاعتي 1937 م و1945 م وهذا موضوع آخر ستوضحه لا محالة دراسات أخرى.

---

[169] Maurice LOMBARD, L'Islam dans sa première grandeur, Flammarion, 1971.

جدول خاص ببعض حالات الكوارث الطبيعية والغلاء التي عرفها المغرب ما بين القرن السابع هـ/ XIII م والنصف الأول من القرن العاشر هـ/ XVI م.

التاريخ	المكان	وباء	طاعون	جفاف/ قحط	مجاعة [1]	غلاء	عدد الضحايا	المصدر
610 هـ/ 1213م	المغرب	وباء عظيم	*[2]	---	---	---	---[3]	ابن أبي زرع، الذخيرة، ص، 49. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 272.
616 هـ/ 1219م	المغرب	وباء رهيب	---	*	*	---	---	محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص.، 41.
617 هـ/ 1220م	المغرب	---	---	قحط مصحوب بجراد	*	الغلاء الشديد	---	ابن أبي زرع، الذخيرة، ص. 53-54. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 273.

[1] تجدر الإشارة إلى أن بعض المجاعات نتجت عن غلاء الأسعار وفقدان المواد الغذائية أو ندرتها بفعل توقف إمداد الأسواق بما تحتاجه من مواد لانقطاع الطرق أو انعدام وسائل النقل، حيث وجدت خلال بعض الفترات وفرة في المنتجات الفلاحية في بعض المناطق مقابل خصاص وندرة في أخرى إثر توقف حركة النقل إما لظروف طبيعية أو سياسية غير ملائمة. محمد الطويل، « النقل والتنقل »، ص. 187.

[2] * : تشير هذه العلامة إلى وجود الوباء أو الطاعون تحديدا أو الجفاف، أو المجاعة أو الغلاء دون إضافات تفصيلية.

[3] ملحوظة : لا يعني عدم ذكر عدد الضحايا انعدامهم، بقدر ما هو سكوت المصادر في إطار أزمة الرقم التي طبعت الإسطوغرافيا المغربية الوسيطية، كما لا يعني ذكر رقم معين أو أشخاص معينين اقتصار الأمر عليهم أو على الرقم المذكور.

619 هـ/ 1222م	المغرب	---	---	قحط دام خمس سنوات، مرفق بغزو الجراد	المجاعة العظمى (619-637 هــ/ 1222-1239 م)	---	خلى فيها المغرب	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 41. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 1، ص. 34.
627 هـ/ 1229م	فاس	---	---	---	*	---	---	البرنوصي، الخبر عن بناء إدريس، ص، 7. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 42.
630 هـ/ 1231م	المغرب	*	---	---	*	وصل فيها وسق القمح 30 دينارا	---	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 276.
634 هـ/ 1236م	مراكش	وباء نتيجة كثرة الأمطار التـي تلت سنوات الجذب	---	---	---	---	قتل عدد كثير	ابن عذاري، البيان الموحدي، ص. 345.
635 هـ/ 1237م	المغرب	اشتد الوباء	---	---	أكل الناس بعضهم بعضا	اشتد الغلاء	كان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 277.
637 هـ/ 1238م	سبتة	---	---	---	المجاعة العظيمة	الغلاء المفرط	---	ابن عذاري، البيان الموحدي، ص، 351.
قبل 650 هـ/ 1252 م.	المغرب (بادس)	---	---	---	مجاعة شديدة	---	---	البادسي، المقصد، ص. 60-62.

سنة قدوم أبي مروان إلى المغرب؟	المغرب	---	---	---	ضرب الجوع البلاد	---	أهلك العالم!	القشتالي، تحفة المغترب، ص. 65.
سنة رجوع أبي مروان من المشرق إلى سبتة قبل 657 هـ/ 1258 م[4]	---	---	---	---	*	*	---	القشتالي، تحفة المغترب، ص. 113.
673 هـ/ 1274م	المغرب	---	---	---	مجاعة شديدة	---	---	ابن تكّلات، إثمد، ج 1، ص. 209. ابن عيشون، الروض العطر، ج 2، ص. 287.
679 هـ/ 1281م	المغرب	---	---	---	مجاعة ناتجة عن غزو الجراد	وصل القمح فيها عشرة دراهم للصاع	---	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 405.

[4] يرجح الحسن الشاهدي أن ذلك تم قبل سنة 657 هـ/ 1258 م على اعتبار أن المصادر تشير إلى أن المغرب عرف الرخاء منذ سنة 657 هـ/ 1258 م (ابن أبي زرع، الذخيرة، ص. 89) ؛ أدب الرحلة بالمغرب في المغرب المريني، منشورات عكاظ، الرباط، 1990 م، الجزء الثاني، ص. 365-366.

683 هـ/ 1295م	المغرب	---	---	قحط شديد استمر إلى غاية 683 هـ/ 1284 م	---	---	---	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 340. الناصري، الاستقصا، ج 3، ص. 83. محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص، 43.
684 هـ/ 1296م	المغرب	---	---	*	---	---	---	الملزوزي، نظم السلوك، ص. 139.
687 هـ - آخر 690 هـ/ 1288-1291 م	المغرب	---	---	قحط ناتج عن هبوب الرياح الشرقية	---	---	---	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 408. الناصري، الاستقصا، ج 3، ص. 89.
690 هـ/ 1291م	المغرب	---	---	*	---	---	---	عبد الوهاب الدبيش، فاس المرينية، ص. 47.
692 هـ/ 1291م	المغرب	---	---	*	*	---	---	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص، 366.
693 - بداية 694 هـ/ 1293 م	المغرب وفي مصر وإفريقية	وباء عظيم تلا المجاعة	---	*	مجاعة شديدة	--	هلك فيها خلق كثير. كان الناس يحملون من الموتى، أربعة وثلاثة واثنين على نعش واحد	ابن أبي زرع، روض، ص، 384، 409. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص. 290.
من سنة 700- 709 هـ/ 1300-1309 م	المغرب	---	---	---	---	لم يزل السعر بها مرتفعا	---	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 395.

706 هـ/ 1306م	المغرب	---	---	*	قلة المادة الغذائية	*	---	عبد الوهاب الدبيش، فاس المرينية، ص. 47.
709 هـ/ 1309م	فاس	---	---	جفاف ناتج عن ريح شرقية دامت أربعة أشهر	---	---	---	البرنوصي، الخبر عن بناء إدريس، ص، 9. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 44.
711 هـ/ 1312م	المغرب	---	---	قحط تطلب إقامة صلوات الاستسقاء	---	*	---	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص، 398. عبد الوهاب الدبيش، فاس المرينية، ص. 48.
712 هـ/ 1312م	المغرب	---	---	رياح شرقية شديدة	---	*	---	عبد الوهاب الدبيش، فاس المرينية، ص. 48.
722 هـ/ 1313م[5]	المغرب	---	---	*	---	*	---	عبد الوهاب الدبيش، فاس المرينية، ص.48.

[5] في 16 ذي القعدة من سنة 722 هـ/ 1312 م هبت ريح شديدة على مدن مكناسة وفاس ورباط تازة وأحوازها استمر هبوبها يومين بليلتهما، هدمت على إثرها الديار، واقعرت من زيتون مكناسة والمقرمدة عددا مهما، وفي 723 هـ/ 1314 م عرف المغرب أمطارا غزيرة وثلوجا كثيفة، عدم فيها الفحم والحطب، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 412.

723 - 724 هـ/ 1323- 1324 م [6]	شمال المغرب فاس، مكناس، تازة	---	---	قحط شديد	مجاعة شديدة	الغلاء العظيم تمادى ثلاث سنين	---	ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.401، 403. ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ، 324. ابن القاضي، لقط الفرائد، ص، 181.
740 هـ/ 1339م	فاس	*	---	---	---	---	أبو عبد الله الرندي	ابن مرزوق، المسند، ص. 261.
744 -745 هـ/ 1344 م	درعة	---	---	قحط شديد	---	---	---	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص، 365. محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 44.
748-749 هـ/ 1348 م	الواحات	---	---	---	مجاعة كبيرة ناتجة عن غزو الجراد	---	---	محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 44.

[6] في يوم الثلاثاء 13 رمضان 724 هـ/ 1324 م بعد صلاة العصر « نشأ بخارج مدينة فاس من جهة جوفها سحاب وظلمة شديدة ورياح هائلة وإعصار عظيم، أعقب ذلك برد عظيم كبير الجرم، زنة الحجر منه أربع أواق وأقل وأكثر، ونزل منه أمثال الجبال، وفي خلاله مطر وابل فجاء منه السيول الطاغية، فحملت الناس، والدواب والمواشي والبقر والغنم والخيل والإبل، وجاء وادي سد رواغ بسيل عظيم هلك فيه بشر كثيرمن الناس ما يزيد على مائة وخمسين نفسا، وأهلك جميع ما بزالغ [الجبل المطل على فاس من الجهة الشمالية] من الكروم والزيتون والشجر ». ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 413. ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص. 324. ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 181. وفي سنة 725 هـ/ مايو 1325 م « أتى سيل بوادي مدينة فاس أول الليل منها لم يعهد قبله مثله، فهدم السور (...) وخرب الجنات وقلع الأشجار العظيمة، وهدم القناطر والديار [والأسواق]، وكان جملة من هلك فيه من الناس المعروفين بأسمائهم دون من لم يعرف سبعمائة وثلاثين نفسا، ومن الديار ألف دار ومائة دار، ومن المساجد خمسة، ومن الأرحاء ثمانية بيوت، ومن الأفران اثنين، ومن الحوانيت أربعة وتسعون حانوتا ». ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 413-414؛ الناصري، الاستقصا، ج 3، ص. 180.

749 هـ/ 1348م	فاس	الوباء العام	*	---	---	---	أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سبع بن مزاحم المكناسي	ابن مرزوق، المسند، ص. 376. المقري، أزهار الرياض، ج 5، ص. 53. المقرى، نفح الطيب، ج 5، 238.
749 هـ/ 1348م [7]	المغرب	---	الطاعون الجارف	---	---	---	تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وانتقض العمران بانتقاض البشر	ابن خلدون، مقدمة، ص. 42-43. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص. 375-376، 411.
750 هـ/ 1349م	جميع الأرض [8]	الوباء الجارف	---	---	---	---	توفي الكثير من الفقهاء	ابن قنفذ، شرف الطالب، و، 97 أ. أو ص. 81 من النسخة المطبوعة.
منتصف القرن 8 هـ/ XIV م	المغرب	---	*	---	---	---	حصد نصف الساكنة	M. TALBI, «Effondrement», p. 57.
749-750 هـ/ 1348-1349 م	طنجة	*	---	---	---	---	والدة ابن بطوطة	ابن بطوطة، رحلة، ص. 666.

[7] ضرب هذا الوباء والطاعون تلمسان. انظر : المقري، أزهار الرياض، ج 5، ص. 15. كما ضرب تونس. ابن مرزوق، المسند، ص. 264-265، 267. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 2، ص. 445. ابن القاضي، درة الحجال، ج 1، ص. 45. ابن القاضي، لقط الفرائد، ص، 202. المقري، أزهار الرياض، ج 5، ص. 50.

[8] عرفت تونس هذا الطاعون كذلك. انظر : أحمد الونشريسي، وفيات، ص. 118، 119. وقد ذكر ابن الخطيب أن الطاعون الأسود بدأ في أرض الصين في حدود سنة 734 هـ/ 1333 م، وبعدها عم المشرق والمغرب والأندلس. مقنعة السائل، ص. 12. والملاحظ أن المصادر تصفه مرة بالوباء ومرة بالطاعون، وهذا الوباء يؤكد أنه لا علاقة للأوبئة بالمجاعات وتزامنهما يكون من باب الصدف.

750 هـ/ 1349م	فاس	---	الطاعون الجارف	---	---	---	يحيى بن يحيى بن مليل	ابن الأحمر، بيوتات فاس، ص. 43. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 2، ص. 445.
750 هـ/ 1349م	سبتة	---	*	---	---	---	محمد بن أحمد الأنصاري قاسم بن أحمد الحضرمي محمد بن خميس الأنصاري	ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص. 184-185. ج 4، ص. 267-268. مجهول، بلغة الأمنية، ص. 26-27.
زمن الطاعون الأسود	سلا	*	---	---	---	---	---	محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 50.
زمن الطاعون الأسود	سوس	---	*	---	---	---	فناء أسرة سانا السوسية	محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 50.
751 هـ/ 1350م [9]	فاس	---	*	---	---	---	---	ابن الخطيب، الإحاطة، نصوص لم تنشر، ص. 62.
زمن ابن عباد (ما بعد الطاعون الأسود)	المغرب	---	---	*	---	*	---	ابن عباد، الرسائل الكبرى، ص. 118-119، 176.

[9] عرفت نواحي إيسلي سنة 758 هـ/ 1357 م أمطارا عاصفية، انظر : النميري، فيض، ص. 490.

763 هـ/ 1362-1361م	مكناسة، فاس، تازة، محلة سفيان وما إلى ذلك	---	*	عظم الجفاف	---	*	استهدف من بها إلى هلكة المجاع وفشو الموتان	ابن الخطيب، نفاضة، ج 3، ص. 61، 90، 95.
763 هـ/ 1362-1361 م	ماغوس (منطقة في بسيط تامسنا)	---	*	---	---	---	احتجز الكثير إلى القبور	ابن الخطيب، نفاضة، ج 3، ص. 90.
764 هـ/ 1363م	المغرب	*	---	---	---	---	---	ابن هيدور، رسالة، ص، 2.
764 هـ/ 1363م	سلا						أحمد بن عاشر السلاوي أبو الربيع سليمان المكناسي وغيرهما	الحضرمي، السلسل، ص. 25، 71. الحافي، تحفة، ص، 43.
765 هـ/ 1364م	مراكش	*	---	---	---	---	محمد المسناوي	محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 62.
775 هـ/ 1373-1374 م[10]	المغرب	---	---	*	*	---	---	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص. 365.

[10] عرف المغرب عام 775 هـ/ 1373-1374 م مطرا كثيرا ظن الناس أنه الطوفان، عمر بنميرة، « النوازل والمجتمع »، ص. 365.

776 هـ/ 1374م	المغرب	---	---	*	المجاعة العظيمة	---	عم الخراب	ابن قنفذ، أنس الفقير، ص. 105. الناصري، الاستقصا، ج 4، ص. 83.
زمن السلطان أبو فارس عبد العزيز (796-799 هـ/ 1393-1396م).	المغرب	---	---	*	---	---	---	ابن الأحمر، روضة النسرين، ص. 50.
795 هـ/ 1392م	توات	---	---	*	*	---	---	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص. 365.
815 هـ/ 1412م	فاس	---	---	---	*	---	مات فيها عدد من السكان، وخلت كثير من الدور	محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 62.
815 هـ/ 1412م	سلا	---	---	---	*	---	أبو عبد الله محمد بن المجراد السلوي	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 238.

816 هـ/ 1413-1414 م	فاس	---	---	---	*	---	مجموعة من الفقهاء : ميمون بن مساعد المصمودي، علي بن عبد الله، محمد بن هيدور التادلي.	التنبكتي، كفاية المحتاج، ج 2، ص. 444. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 1، ص. 348. ج 2، 475. ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص. 15، 249. ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 238.
817 هـ/ 1414م	سبتة	---	*	---	---	---	الطبيب محمد بن مروان المعافري	مجهول، بلغة الأمنية، ص. 54-55.
818 هـ/ 1415م	مكناس	*	*	---	---	---	محمد بن عمر بن الفتوح	ابن غازي، الروض الهتون، ص، 59. ابن مريم، البستان، ص. 264.

819 هـ/ 1416-1415 م	المغرب انطلاقا من سبتة	وباء مرافق للغزو البرتغالي للمدينة	---	---	---	---	---	---	محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 63.
846 هـ/ 1442-1441 م	المغرب [11]	أوبئة قاتلة دامت 18 شهرا	---	---	---	---	ما بين 400 إلى 500 شخص في فاس		B. Rosenberger et H. Triki, « Famines », p. 113.
846-845 هـ/ 1442-1441 م	فاس، أصيلا	وباء تقصيص الظفرة في لقط، ووباء عزونة في جذوة الاقتباس.	---	---	---	---	400 إلى 500 شخص في بضعة أيام، وحسب مزين فإن هذا العدد كان يموت في فاس يوميا		ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 250. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 2، ص، 535. محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص. 64. محمد مزين، وثيقة جديدة، ص. 397
زمن الوزير علي بن يوسف الوطاسي أي بعد 852 هـ/ 1448 م	المغرب	*	---	---	---	---	---	---	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 252.

[11] عرفت تلمسان هي الأخرى وباء عام 845 هـ/ 1441 م. انظر : ابن مريم، البستان، ص. 43.

856 هـ/ 1452م	المغرب، مدينة الجديدة	وبـاء عظيم وسماه ابن القاضي بوباء عـزونـة أيـضا!	*	---	---	---	أبو العباس أحمد بن العجلان الوزروالي	ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص. 339. ابن القاضي، لـقط الفرائد، ص. 254.
873 هـ/ 1468- 1469 م	المغرب	*	---	---	---	---	400.000 في المدن 10.000 في القرى	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », p. 113.
874 هـ/ 1469م	فاس	---	---	*	*	---	---	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص، 367.
876 هـ/ 1471م	تازة	*	---	---	---	---	---	حوالة أحباس تازة، ص، 223، 233.
886 هـ/ 1481م	المغرب	*	---	---	---	---	---	ابن القاضي، درة الحجال، ج 2، ص. 139.
886 هـ/ 1481م	فاس	*	---	---	---	---	---	ابن القاضي، لـقط الفرائد، ص. 268.
892 هـ/ 1486م	المغرب	*	---	---	---	---	---	ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص. 159.
897 هـ/ 1491م	المغرب	---	طاعون سمورة	---	---	---	محمد بن محمد الغرديسي	المنجور، فهرس، ص. 51.

898 هـ/ 1492م	فاس	انـتـقـل مع المهاجرين بعد سقوط غرناطة	*	---	*	*		24.000 ضحية 4000 ماتوا بالطاعون 20.000 ماتوا بالإسهال	المقري، أزهار الرياض، ج 1، ص. 68. محمد الأمين البزاز، أوبئة، ص، 65. B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 113-114.
899 هـ/ 1493- 1494 م	المغرب	---	طاعون سمورة	---	---	---	---	---	المنجور، فهرس، ص. 37
899 هـ/ 1493م	فاس والنواحي	---	*	---	*	---	---	حوالي 20.000 ضحية	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89,114.
899 هـ/ 1493م	توات غساسة/ قلعية	وباء جاء بعد المجاعة	---	---	مجاعة سابقة للوباء	---	---	وباء قاتل	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », p. 115. الفكيكي، قلعية، ص.75.
900 هـ/ 1494م	مملكة فاس	---	*	---	*	---	---	1200 شخصا يوميا، وقد استأصل هذا الداء السكان	حسن الفكيكي، قلعية، ص. 22، هـ، 2.

900 هـ/ 1494م	الواحات	*	---	---	*	---	---	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص. 367.
900 هـ/ 1494م	كوارة	*	---	---	*	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89.
909 هـ/ 1503م[12]	المغرب	*	---	---	---	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89.
913 هـ/ 1507م	المغرب	---	---	---	---	كان الغلاء العظيم بالمغرب	---	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص.، 281.

[12] وفي سنة 911 هـ/ 1505-1506 م نزل الثلج في فاس وما والاها، وحملت الأودية، ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 280.

914 هـ/ 1508م	فاس	*	---	---	---	---	موت عدد مهم من الأفراد	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 281. ابن القاضي، درة الحجال، ج 3، ص. 300. B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89, 116
915 هـ/ 1509م	فاس	*	---	---	---	---	---	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 282.
917 هـ/ 1511م	سوس	*	---	---	*	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89, 116-117.
919 هـ/ 1513م	تاكسة في إقليم حاحا	---	---	كثر الجراد جدا حتى فاق عدد السنابل	حيثما مر الجراد ترك مجاعة كبيرة	---	---	ابن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص، 105. ج 2، ص. 278-279.
922 هـ/ 1515-1516 م	السهول الأطلسية حول أزمور	---	---	جفاف أدى إلى نقصان الحبوب، وفي ربيع 1516 م كان ضروريا بعث القمح الأندلسي للمنطقة	---	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89, 117.

922 هـ/ 1515- 1516 م	أكـادير	---	---	*	قلة الحبوب	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », p. 117.
923 هـ/ 1516- 1517 م	السهول الأطلسية حدود اتجاه طنجة	---	---	جفاف وجراد	---	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89.
923 هـ/ 1516- 1517 م	أزمور، سوس	---	---	*	*	---	---	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص. 367.
924 هـ/ 1517- 1518 م	أكـادير	---	---	*	*	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89. محمد رزوق، الأندلسيون، ص. 147.
925 هـ/ 1518- 1519 م	فاس	*	---	---	---	---	عدد كبير من الموتى	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89,119.
926 هـ/ 1519م	المغرب	---	---	*	*	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89,119.

926 هـ/ 1519م	فاس، سلا	*	---	*	---	---	400 شخص إلى حدود آخر جمادى	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 287. الناصري، الاستقصا، ج 4، ص. 174.
927 هـ/ 1520م	المغرب	وباء جارف	---	لم تنزل في هذه السنة نقطة مطر	مجاعة مفرطة	غلاء عظيم	عدد كبير من الضحايا	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 288. B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89, 119.
927 هـ/ 1520م	المغرب	---	الطاعون العام	---	---	---	الشيخ السوسي	المنجور، فهرس، ص. 30، 36.
927 هـ/ 1520م	فاس ومناطق أخرى	---	---	*	---	*	---	المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، ص. 43.
927 هـ/ 1520م	أصيلا	*	---	---	---	---	في أخر يناير 5 إلى 6 في اليوم وفي فبراير ومارس 20 إلى 25 في اليوم. 1200 ضحية في المجموع	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 119, 121-122, 128.
927 هـ/ 1520م	سوس	*	*	---	---	---	جر معه عددا مهما من الضحايا	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89, 119.

927-928 هـ/ 1520-1521 م	المغرب	---	---	---	مجاعة شديدة	---	---	عثمان المنصوري، انعكاسات الاحتلال، ص. 143.
927-928 هـ/ 1520-1521 م	آسفي، وازمور	---	---	---	المجاعة الكبرى مرافقة/ وفي ظل الاحتلال البرتغالي	---	باع جل السكان أنفسهم وأبناءهم لكسب الخبز بحيث أمست الآن مقفرة	مارمول، إفريقيا، ج 2، ص. 100.
928 هـ/ 1521م	المغرب	*	طاعون خطير جدا تلا المجاعة	---	أسوأ من مجاعة 1521 م دامت ثلاث سنوات تقريبا	---	أنهكت الساكنة بالمجاعة وزاد الطاعون في إحداث دمار مهول	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89, 119-120, 122-123.
928 هـ/ 1521م	جبل مجاور لمراكش	*	---	---	---	---	علي بن محمد من أهل سوس	التنبكتي، نيل الابتهاج، ص. 334.
928 هـ/ 1521م	فاس	---	---	دام إلى حدود يناير 1533م وقد يكون هذا الجفاف ضرب مناطق أخرى غير أن المعلومات غير متوفرة	مجاعة كبرى	ارتفعت الأسعار	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », p. 150.
قبل 930 هـ/ 1522-1523 م	قلعة بني منصور	*	---	---	---	---	قضى على جميعهم!	الريفي، جواهر السماط، و، 9ب - 10 أ.

قبل 930 هـ/ 1522-1523 م	أحد مداشر زرهون	*	---	---	---	---	---	خلى المدشر	الريفي، جواهر السماط، و، 48 أ.
من أول شوال إلى آخر ذي الحجة سنة 939 هـ/ 1532 م	فاس (انطلق من ناحية القصر)	*	---	---	---	---	---	38 شخصا	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 239.
940 هـ/ 1533م	فاس	---	*	---	---	---	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », p. 147.
944 هـ/ 1537م	فاس	وباء عظيم	*	---	---	---	---	---	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص، 239. B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », p. 147.
947-948 هـ/ 1541 م	فاس	---	---	ظهور الجفاف	---	---	---	---	عثمان المنصوري، انعكاسات الاحتلال، ص. 143.
948 هـ/ 1541م	النصف الجنوبي للمغرب	---	---	جفاف مرفق باجتياح الجراد	مجاعة أدت إلى فرار الناس صوب مملكة فاس	نقص القمح فارتفع سعر الخبز	---		B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89, 148-149

949-950 هـ/ 1542-1543 م	فاس	---	---	اشتداد الجفاف	*	---	---	---	عثمان المنصوري، انعكاسات الاحتلال، ص. 144.
960 هـ/ 1552م	منطقة فاس	---	---	*	---	---	---	---	B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89.
تحت حكم الوطاسيين	إقليم تامسنا	---	استمر الطاعون ثلاث سنوات	---	استمرت المجاعة ثلاث سنوات	---	---	---	مارمول، إفريقيا، ج 1، ص. 111. ج 2، ص. 126-127.
في ظل الحروب بين الوطاسيين والسعديين	إقليم دكالة	---	*	---	*	---	---	استفحلت الأوضاع بفعل الطاعون والحروب	مارمول، إفريقيا، ج 2، ص. 102-103.
964 هـ/ 1557م	شمال المغرب الريف، تطوان، فاس	*	---	---	---	---	---	نسبة عالية من الموتى	ابن مريم، البستان، ص. 276، 284. داوود، تاريخ تطوان، ج 1، ص، 124. B. ROSENBERGER et H. TRIKI, « Famines », pp. 88-89.